سمات الخطيب في اسلوب زكي مبارك

بقلم محمود محمد سليمان

* * *

نشرت « الاديب » بحوثا كثيرة عن حياة زكي مبارك ، تصور ما لقيه من فوز واندحار، وترسم التيارات العاصفة التي ماج بها خضمه الفسيح ، وقد رايت ان يكون لاسلوبه جانب من انتباه الكتاب ، وافادة القارئين .

والحق ان زكي مبارك لم يكتب مقاله ــ وما اكثر ما كتب ــ الا وهو يتمثل جمهورا غفيرا من الناس يشافههم ، ويظل يهدر بشمقشقة البيان امام هذا الجمهور المتخيل حتى يقضي وطره من التعبير وهنا يشعر بالسعاده والرضا عن نفسه ، ويضع القلم مبتسما ، وكانه يعيش في اصداء حلوة من تصفيقهم وهتافهم بسحر بيانه .

اهو اذا خطيب في كتابته ؟! ذلك ما اعتقد ، واسلوبه الكتابي خطابة ، له رونق الخطابة واستهواؤها ، وخلابتها ، واحتجاجها ، وكل ما ترى من سمات الاسلوب الخطابي.

واذا تواضع الناس على ان لكل فن من فنون الادب اسلوبه فان الادباء قد يلفون هذه الفواصل ويكسرون الحدود ، فينقلب الخطيب شاعرا ، والشاعر خطيبا ، وهكذا فليست معالم الفنون الادبية اسوارا منيعة ، او مناطق محرمة ، وانما المقياس في براعة التعبير الصدق ، وكشف خلجات النفس ، ولا ملامة ــ بعد ــ على الاديب ان يستبدل بقلم الكاتب عصا الخطيب او يكون على المنبر شاعرا يصب من لهيب نفسه في افئدة الناس !!

وكان زكي مبارك قد ارتضى لنفسه هذا الاسلوب ، لانه صورة طبيعته ، ومن علائم رضاه ، عن هذا الاسلوب انه يقول في مقالة له عن احمد امين : « انه ليس بكاتب ولا اديب ، لانه لم يستطع ان ينقل القارىء من ضلال الى هدى ، او من هدى الى ضلال ، وانما كانت مؤلفاته وبحوثه ضربا من التقرير الذي يخاطب الاذهان ، ويعجز عن مخاطبة العقول والقلوب » (١) ومعنى هذا ان اسلوب الكتابة المتخير في نظر زكي مبارك هو ما يخاطب العقول والقلوب . ينتزع منها الاذعان بعد الاقناع ، ولو صدق منطق المبارك لكان الاشبه باسلوب الكتابة هو التقرير الذي عابه على احمد امين وكان الذي ينقل القراء من الهدى الى الضلال او من الضلال الى الهدى ، ويخاطب افئدتهم وعقولهم ــ اليق بوصف الخطيب منه بالكاتب ، لان الناس يعرفون ان من يتلاعب بالالباب بسحر منطقه خطيب لا كاتب ، وليكن زكي مبارك كاتبا باوصاف الكتاب او كاتبا على شريطة الخطباء ، فانا لا نحاسبه الا بمقدار صدقه في التعبير ، وليتخذ من الاساليب ما يشاء !

وربما هتفت النزعة الخطابية في نفس مبارك ان ينضم الى صفوف الثوار في ثورة ١٩ المصرية ويعتلي المنابر مع الخطباء البارزين ، وهو اذ ذاك في مطلع حياته الادبية. كتب تحت عنوان : ذكريات طالب اشترك في الثورة ، يقول : كنت من خطباء الثورة المصرية ١٩١٩ فاكتويت بنارها ، وشهدت آلام التشريد والاعتقال شهورا طوالا.. وكان الانسان لا يصل الى موقف الخطيب الا بجهد جهيد ، وكنت ابحث عن فرصة للخطابة فلا استطيع ، وظللت اياما لاخطب، وطال الانتظار، وحضر وفد الصحافة الاجنبية وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية وسألني الشيخ ابو العيون ان ارد تحيتهم فخطبت بالفرنسية خطبة شهد الشيخ الزنكلوني بأن لساني فيها كان أفصح من لساني بالعربية » وظل زكي مبارك يستجيب لهذه النزعة ويمثلها في مقالاته الكثيرة ، فاذا رثى صديقا او عاش في ذكريات الماضي ، او تحدث عن اوطار الحب وشرح عاطفته اعتمد على عصا الخطيب ، وشقق فنون الحديث هادرا كالموج المتلاطم ، وتخيل القراء شهودا ، تلمع نظراتهم ، وتهتز رءوسهم وتتلون انفعالاتهم من وقدة حديثه . يقول في احدى مقالاته : « قد علمتني التجارب وستعلمكم ان الانسان اضعف من ان يقطع رزق اخيه الانسان ، فهناك قوة ربانية تبيح الجهاد في سبيل الرزق الحلال ، وهذه القوة لا تنتظر اراءكم في التجرع والاغتباب فانطحوا الصخر ان شئتم فلن يسمع لكم في مصاير الناس قيل ولا قال ... ثم يقول : ما الذي غنمت وانا امتشق القلم منذ اكثر من خمس وعشرين سنة بعزيمة اقسى من الصخر واصلب من الحديد ؟ ما الذي غنمت وقد كنت كاتبا وشاعرا قبل ان يولد فريق من الناس تؤذيني عندهم قيمة قلمي ، لقد غنيت اهل زماني اناشيد ايقظت بها صدورهم من احلام غافيات ، واحييت بها ما كان في قلوبهم من موات فاين من يسعدني بكلمة صدق ادفع بها عدوان زماني لامضي على سجيتي في السجع والغناء ؟! وهل عانى ايوب من زمانه مثل ما عانيت ؟! »

وفي سطور المقالة كما ترى نفس موارة بالالم والغيظ ولا يكفي الكاتب ليريح نفسه من عناء العاطفة الحادة ، الا ان يلوح بقلمه في وجوه الجمهور ليشهده على مأساته ، مأساة قطع الرزق، مستخدما اسلوب الخطاب وهو اسلوب

---

(١) مجلة الرسالة ٢٣ اكتوبر ١٩٣٩ . (٢) زكي مبارك لانور الجندي ص ١٠٩ (٣) الرسالة ٢٩ يونيه ١٩٤٣. (٤) كانت المناظرة في كلية الاداب مارس ١٩٤٠. وكان يعارضهالاستاذ لطفى جمعه الكاتب المصري الكبير (٥) بدات هذه المقالات منيناير ١٩٤٢ بمجلة الرسالة . زكى مبارك لأنور الجندي

المشابهة والمواجهة ، وهو يسخر من طالمية الذين اخرجوه من وزارة التربية بهذا الاسلوب القوي المتهكم « انطحوا الصخر فلن يسمع لكم في مصير الناس قيل ولا قال» ثم يعود الى نفسه متحسرا فيذكر انه لم ينتفع بادبه كما انتفع الناس – باسلوب الاستفهام وفيه عصارة المرارة والالم الذي يعانيه « ما الذي غنمت وانا امتشق القلم منذ خمس وعشرين سنة ؟ اين من يسعدني بكلمة صدق ادفع بها عدوان زماني ؟ هل عانى ايوب في زمانه مثل ما عانيت ؟! . هنا وجه الخطيب الثائر المهتاج يرسل اساليب البيان في تدفق وحرارة ، وهنا جمهور القراء يشهدون كاتبا يمسك بتلابيب شانئيه والحاقدين عليه ، وكان بين السطور معركة قاسية يتدافع فيها الكاتب ومن يعنيهم بالحديث بالايدي والارجل والرؤوس ! !

وزكي مبارك حاد العاطفة ، صريحها لا يبالي ان يطلع الناس على مكنون سره واطواء نفسه وما كان من ذلك حسنا فهو موضع المباهاة والتمدح والاعلان ، وما كان مذموما فعند الجمهور فطنة الغفران ، واذا فلا مبالاة ان يكون صريحا يشهد الناس على محامده وتقابيه ، بل ان طبع الصراحة فيه يدفعه دفعا الى ان يتكاشف مع قرائه الى حد العرى والتجرد ، وينبذ اسلوب المواربة والدهان . ومع حدة العاطفة وصراحتها تراه مندفعا لايهاب المواقف الصعبة التي يتوارى منها الاشداء جسورا جريئا مغامرا يسخر من تهيب الابطال مواقف المغامرة ، يضاف الى ذلك ان حياته كانت سلسلة من الكفاح والمصاعب والالام . فقد انتزع المجد الادبي من انياب الاسود بعزيمة اقسى من الصخر واصلب من الحديد كما يقول ، ومثل هؤلاء المكافحين الذين يبنون مجدهم الادبي بلا سناء يظنون الشر في الايام ويتوجسون الخوف من مداهمتها ولا يتوقعون الساعد الذي يمتد اليهم في سواد الخطوب بمعاونة او مظاهرة ، ولكل ذلك كان مبارك خطيبا في كتابته ، فحدة عاطفته وصراحته واندفاعه وجراته ازواد تؤهله لان يواجه الجمهور بالحديث، واحساسه بالظلم وتأثره بمرارة الكفاح يخرجانه الى وضح الطريق يشهد الناس ويقررهم بمواضع آلامه ، ويسائلهم عن وجه الحق فيما يكتب ويقول ، وكان مباركا بهذه الظروف لا يستغني عن الجمهور فهم على كل حال ، ومن وجهة نظره شهود قضيته ، لا يقدم فيهم المنصف ومن يستظهر به على الحق الذي يراه .

واستعمال اسلوب الخطاب كثيرا في كتابته لون من الصراحة والوضوح والمواجهة التي يتسم بها طبع مبارك ، وكان استعمال هذا الاسلوب « لازمة » شائعة في كتابته حتى في مواقف الرثاء والذكرى يقول في موت والده : « اقسم ما رايت اصبح منك وجها ، ولا اصح دنيا ، ولا اصدق قولا ، ولا افصح لسانا ، ولا اثبت جنانا ، لقد اخرجني موتك عن وقاري ، ورماني بطوائف من التحرق والالتياع ، فاخذت اتامل كيف يأفل القمر ثم يعود ، وكيف تتعاقب النجوم فلا يعوقها افول ، ... وانت الرجل الشهم الذي اجتاز مفاوز الدنيا بقلب من الصخر، وعزيمه امضى من السيف . وتلك رزانتك اتمثلها فازداد سخرية بالحوادث والخطوب ، وذلك ثغرك الذي لم يعرف غير الابتسام في جميع الاحوال اتمثله فاعرف ان الدنيا اهون من ان يقطب لها جبين الرجل الشجاع، وذلك ايمانك اتذكره فاعرف أن اليقين كنز ثمين » .

وفي مثل ذلك الموقف كتب الدكتور المبارك في رثاء استاذه المرصفي :

يايها الرجل الذي عرفت بفضله اسرار اللغة العربية واستطعت بفضله ان ارفع رأسي بين اساتذة الادب ، يايها الرجل : إنا مدين لك بكل شيء في حياتي اللغوية والادبية ولا يزاحمك في قلبي الا انسان واحد هو فقيد البيان والادب الشيخ المهدي ، لست وحدي تلميذك ايها الشيخ الجليل ، فهناك مئات انتفعوا بعلمك وادبك ، ولكني الرجل الوحيد الذي بكى لموتك بكاء الاطفال » .

ولا حرج على الكاتب الذي يعيش في ذكرياته عن فقيد عزيز ان تتقاطر ذكرياته على اسلة قلمه متتابعة في رفق ، وقد يكون مساقها الرفيق ابعث لقوة التأثر بها ، وانسب لجلال ماضيها ولكن الكاتب يختار الاسلوب الذي يصور نفسه ، فالاسلوب صورة من نفس صاحبه ، وقد اختار زكي مبارك في موقف الذكرى والرثاء ان يكون خطيبا يخاطب اباه واستاذه ، ويناديهم فهم حضور لديه ، وليشهد القراء هذا الخطاب والنداء ليروا صورة من الوفاء وعرفان الجميل يعلنها الكاتب في اسلوب خطابي مبين .

ومرة ثانية نؤكد ان الكاتب حر في اختيار الاسلوب الذي يبلغ ما في نفسه ، فليس هذا الاسلوب الخطابي في ميزان النقد ابخس الاساليب في هذا المجال ، بل ربما كان في منطق النقد الادبي اسلوبا بارزا قويا ، اكتسب القوة من المشافهة والخطاب .

ويبدو اسلوب الاستهواء واضحا في مقالاته يقول : « ان الرحمة شيء جميل ، ولكن دنيانا لم يقم فيها بناء واحد على اساس الرحمة ، والطبيعة نفسها لم يتسق فيها وضع واحد على اساس الاشفاق ، وانما قام كل شيء في الوجود على اساس القهر والفلبة ، وسيطرة القوى على الضعيف ... ان الشيطان مخلوق شريف لانه لا ينافق فهو يعلن في كل وقت انه من الضالين المضلين، ولو كشف كل انسان عن سريرته كما كشف الشيطان لاصبحنا جميعا من الملائكة لا من الشياطين » .

ومن طرائق الخطباء في التعبير الخلابة والاستهواء ، وهم يفاجئوننا بالغرائب من القضايا حتى يقفوا بنا في زلل المواقف ، وتركبنا الحيرة والبلبلة ، واذ يفتحون لنا

بابا من الدهشة والغرابة بما يرمون لنا من اقضية مثيرة يبرمون بنا حتى يسلموا لنا الادلة التي يرون فيها اقناعا وبلاغة ، والتي — لا شك — تبلغ من نفوسنا مبلغها من الارتياح والاطمئنان فاذا نحن مقتنعون بكلامهم ، او ماخوذون لا نملك اعتراضا ولا حسنا عن قبول احتجاجهم الشعري الخالب ، وهكذا اقنعنا مبارك الكاتب اقناع الخطيب بان الشيطان مخلوق شريف ، لانه لا ينافق .

وترداد اللفظ وتكرار الفكرة من مذاهب التعبير الخطابي ، فمهمة الخطيب التأثير بتعبيره والاقناع بفكرته ، وهو يتخذ ترداد اللفظ ، وتكرار الفكرة بابا من السحر ، وتأكيد الفكرة والالحاح على النفس والعقل ليستجيب السامعون لهواتفه ، وكاتبنا الخطيب يبدو على شريطة الخطباء اذا وصف الحب في مقالة له فقال .

الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس ، الحب لغة روحانية يفهمها القلب عن القلب وتنقلها الروح عن الروح ، وتسري نشوتها في الافئدة سريان الصبا في الغصن ، الحب قبس من الصهباء في كاس من الماس ، الحب لمحة من لمحات السحر الذي يفيض به الوجود في ليلة قمراء ، الحب نغمة عذبة حلوة تناغي السرائر ، وتناجي القلوب الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ، او بؤس يلبس ثوب النعيم ، الحب عاطفة ماحمة ما يدري الرجل : اهي نقمة ام نعمة ، ولا يعلم : اهي هدى ام ضلال ، انما يعلم انها كلمة سحرية تزلزل العزائم ، وتدك الجبال ، الحب هو ائتلاف روحين ، وامتزاج قلبين وانسجام نفسين ، الحب هو ان تذوب القسوة في كوثر الجنان ، وان تأنس الاسود الى الظباء ، الحب هو ان تصير قلبا شفافا تجرحه النظرة ، وتفتنه الخطرة ، ويأسره الدلال . الحب هو ان تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب ، الحب هو ان تخاطر بالملك في سبيل من تحب »

ماذا ترى في هذا الحديث الا انه خطبة مكتوبة قوامها التكرار والترداد ، وافواف الخيال الساحر والعبارات الموسيقية الخالبة ؟ والخطيب عادة يحفل رصيده بالعاطفة القوية كالشاعر فاذا استعان باسلوب التكرار ، وتوشية الخيال كان عمله جدا لا خطل فيه وقد يستعير الكاتب ادوات الخطيب اذا جاشت نفسه بالانفعال العاطفي كما فعل زكي مبارك اذ وصف الحب في سطوره السابقة ولكن الدكتور المبارك في غير هذا الموقف العاطفي الواضح يأبى الا ان ينفعل ولا يعجبه الا ان يثور ثورة الخطباء وهو يتحدث عن ماضي اللغة العربية وعظمتها ، حديثا علميا يناسبه الهدوء والمنطق الحليم ، يقول في كتابه اللغة والدين والتقاليد :

« ان اللغة العربية لها ماض مجيد في الحياة العلمية والطبية ، ومن السهل رجعها الى مجدها القديم ونحن لاتعجزنا الاصول ، ولكن تعجزنا الهمم العاتية التي تخلق الممالك والشعوب ، أريد أن أعرف ما الذي يقهرنا على هذه التبعية للانجليز والفرنسيين ؟ الم تروا كيف يحرص الغاصبون على نشر لغاتهم ؟ فان كانوا يرون ذلك من مؤيدات الاحتلال افلا يرى الوطنيون نشر لغتهم من مؤيدات الاستقلال ؟

ان حفظ اللغة العربية هو الاساس في حفظ الاستقلال ، ان اللغة هي اهم مظاهر الاستقلال ، فعضوا عليها بالنواجذ ان كنتم تعقلون » .

وواضح أن تلوين الاسلوب على نحو مانرى في تعبير الكاتب في هذه الفقرة القصيرة السابقة يفصح عن طبيعة اسلوبه الكتابي . ما الغرض من استخدام التوكيد ؟ ما مغزى الانتقال من اسلوب الخبر الى اسلوب الاستفهام ؟ ثم ما الغرض من استخدام صور التأكيد المعقودة ومن صور التوكيد في عبارته الحصر واستخدام الضمير بعد ان المؤكدة ، وكذلك يستخدم الانشاء بصورة معقودة فالامر والاستفهام يجريان في اسلوب الكاتب بصورة واضحة وما هدف الالتفات من الغيبة الى الخطاب ؟ ذلك تلوين الخطباء في حديثهم الى الجمهور ، والعاطفة المتحمسة للفكرة اشتعلت في نفس الكاتب حتى احالته خطيبا يهز السامعين ويوقد فيهم الحرارة ويلهب شعورهم بفكرته ، وكان طبيعيا أن يكون تكوين الاسلوب على نحو ما بينا — وسيلة الكاتب الى التأثير والاقناع !

والموقف يختلف في عرض الفكرة من كاتب الى اخر ، فقد يعيش بعض الكتاب يراودن افكارهم حتى يبلغوا من الايمان بها مبلغا كبيرا ، وحتى تصير نبضا في احساسهم ولكن طبائعهم الهادئة تخفي انفعالاتهم فيظهر حديثهم وليس فيه الا وجه المنطق والصدق الرزين ، ويسلم القراء بوجهة نظرهم ويشدون على ايديهم مقتنعين بحديثهم ، ولكن العين اللماحة لايخفى عليها ان وراء الحجة القوية والمنطق الهادىء صدقا في النفس وايمانا بالرأي ، واخرون من الكتاب عاطفيون يتناولون افكارهم بحرارة العاطفة ووقدة الانفعال ، لايصبرون على المنطق الهادىء فيصرخون بافكارهم ويعلنوها على الاشهاد ويستشفعون بالحجة الرشيدة ولكن صراخ الانفعال في انفسهم يكون اظهر من محبتهم ، ويستمع الناس الى براهينهم ويحسون بمشاعرهم وينجذبون الى افكارهم بنشوة الانفعال التي ظهرت في احاديثهم اكثر مما ينجذبون بالبراهين . ومن الكتاب العاطفيين زكي مبارك ، لايسلمك الى افكاره الا في جو متوقد بالعاطفة ، ومن هنا اتسمت كتابته بسمة الخطابة ، واتخذت اشراطها ومذهب تعبيرها، ومن هنا ايضا كان ادبه صادقا ، لاتساقه مع نفسه وطبيعته ولو تصورنا ان مباركا كان في كتابته كالكتاب الهادئين لاتهمنا ادبه بالزيف والتمويه لان الطبيعة العصبية التي تهتز لادنى الانفعالات لا تنتج الا لونا من الادب هو

عويل النفس العصبية وصورتها ، وانت مضطر ان ترى صورة زكي مبارك الخطيب في كل كتابته ، لانه لايستطيع ان يتخلص من هذا المزاج العصبي الذي ركب فيه . لقد اختار طريقة في التعبير اوضح الطرائق لكشف هذه النفس العصبية واوضح الطرائق في الدلالة على تأثره بمنبع معين في الثقافة والدراسة ، كانت عاطفته حادة ، وكانت نفسه صريحة فلماذا لا يكون اسلوبه مواجهة ومشافهة وخطابا؟ وكان كاتبا مزعزع الثقة بالمجتمع، اكتوى بنار الظلم والالم ويكاد لفرط شعوره بالالم ان يرتاب في حديث نفسه ومن اجل ذلك اتخذ اسلوب التوكيد في حديثه صفة ولزاما ثم ان اسلوب التوكيد الذي يشيع في مقالاته نوع من الاحساس بالذات والاستعلاء بها فافكاره قضايا مسلمة قد فرغ منها وانتهى من بحثها فهي قضايا مؤكدة ينبغي ان يقبلها الناس ولا يمتازون فيها والتفاته الى نفسه في حديثه طبيعي لانه صورة من تأكيد الذات في مجتمع ينكر على الكاتب — من وجهة نظره — كل حق ، واذا اكثر من اساليب الانشاء والاستفهام في حديثه فمن السهل ان يرتد ذلك الى طبيعة الوضوح فيه والصراحة فهو يخاطب الغائبين كأنهم شاهدون فهو يلاحقهم ليكونوا شهود ارائه او مفزعا من صراخ عواطفه .

ارايت ان اسلوبه صورة نفسه ؟ ولن يغيب عنا انه كان يصطنع الجزالة والقوة في تعبيره ويتخير اللفظ ويصقل العبارة ولوردنا هذا وذاك الى منابع ثقافته فواضح ان الكاتب يدين في اسلوبه لدراسة الادب العربي اكثر من اي عنصر اخر من عناصر ثقافته وزكي مبارك (يؤمن بالادب العربي ايمانا عميقا ويرى انه يكفي وحده لتكوين الاديب) (٢) .

وبدافع من مزاج الكاتب النفسي خاض معارك جدلية مع كثير من الادباء المعاصرين ، وكانه موكل بفتح ميادين الجدل في القضايا الادبية والفكرية ، وليس غريبا ان يستمرىء هذا الجدل الطويل مع خصوم اشداء يخلون له وجه الميدان ، ليظل فيه حائما مترددا ، يهز سنان القلم كما يهز المحارب السيف فاذا راى من خصومه الذين ينافحهم سكوتا ، او انصرافا عن ملاكمته حلا له ان يواصل معركته ، ولا يهدا اواره حتى يجف المداد على قلمه ، طبيعة الخطيب ولا شك ! فالجدل لون من الخطابة لايبرز فيه الا الذين يقدرون على المواجهة بالحجة والبرهان .

وصف الاستاذ الزيات زكي مبارك وطبيعته الادبية فقال (٣) : « هو لون من الوان الادب المعاصر لا بد منه ولا حيلة فيه ، هو الملاكم الادبي في ثقافتنا الحديثة ، اما عنفه وشماسه فهما الصبغ المميز للونه ولو شئت ان تجرد هذا الملاكم المبارك من عنف الهجوم وخشونة المراس لما بقي منه غير توفيق الحكيم واسلوب الحكيم » وعبارة الزيات تلميح الى ما وضحناه من الفرق بين منهجين في الكتابة : فكاتب تغلب انفعالاته افكاره ، ولا يقدر لحدة مشاعره ان يضبط انفعالاته ، فيسوق اليك حديثه في غليان المرجل ملونا بالوان شتى من الاساليب تصرف ما في نفسه من عنف واهتياج ، واخر يمضغ افكاره على مهل وفي اناة وريث فاذا ما تطلعت انفعالاته الى المبادرة كظمها برزانة الفكرة وعصمة المنطق الحكيم ، وانت تقرا هذا الطراز من الكتاب فكرا هادئا واحساسا حيا ينبض بالحرارة ولا يثور، وتستتر عواطفهم وراء افكارهم العميقة الهادئة كالجمر يتوارى تحت الرماد فيه الوقد واللظى مع خفاء واستتار . ولو تناولت كتابة المبارك بعامة في انماطها والوانها لوجدت فيه الكاتب العاطفي الذي يمثل الخطيب في اسلوبه المتموج الفن ، يحاول ان يأسر القلوب بخلابة الفن قبل ان يشبع الفكر بالغذاء الثقافي .

ذكر كرم العراق ، ونقاء الاخلاق في اهله وجمال الطبيعة العراقية فقال : ما ذقت طعم الحياة الا في العراق، ولا رايت صدق القلوب الا في العراق ، ولا عرفت جمال النيل الا بد ان رايت لون مائه في دجلة والفرات ، احب ان تسمعوا سجع الحمائم في الموصل ، وان تروا غابات النخيل في البصرة ، وان تعانوا السحر في بابل ، وان تكحل اعينكم بغبار السحر في النجف ، وان تستصبحوا بظلام الليل في بغداد .

ودعا في مقالة له الى تطوير الاراء مع الزمن حتى لا تجمد فقال : يجب ان تنظر الى آرائك كما تنظر الى اثوابك ، فالاراء تبلى كما تبلى الاثواب ، والذي يعيش على راي واحد ، قد يكون اشد فقرا من الذي يعيش بثوب واحد ، فاحذر من العيش وانت بالي الاراء ، وقد يعيرك الغافلون بالتنقل من راي الى راي مع انهم لا يعيرون من يلبس ثوبا بعد ثوب ، وانما كان ذلك ، لانهم يجهلون ان الاراء من صور الحيوية ، ولانهم يتوهمون ان الثبات على الراي الواحد من شواهد اليقين ، ولو عقلوا لادركوا ان العين التي تنظر باسلوب واحد هي عين بليدة لا تدرك الفروق بين دقائق المرئيات وكذلك يكون العقل البليد » .

وتمثل طبيعة الاسلوب في الفقرتين السابقتين تجد هتاف الخطيب يلح عليك مستخدما وسائل كثيرة ، من التعبير ، فالاطناب والخطاب والالتفات ، والتأكيد ، وبسط الراي لتقليب اوجه الاحتجاج واستخلاص النتائج من المقدمات .

وانا مؤمن بان زكي مبارك كان خطيبا على صفحات القراطيس ، لا على اعواد المنابر ، كان خطيبا بقلمه لا بلسانه، فشخصيته الخطابية لا تبرز الا حين يخلو الى نفسه ، ويتخيل معاركه وجمهوره ، ثم يجول ويصول بسنان القلم على بياض الاوراق ، فيحيلها عواطف نابضة ، وافكار تتفائل وتتلاحم ، اما حين يواجه الجمهور مواجهة فعلية ،

فانه لا يكتسب الجولة ، وربما شال ميزانه في هذا المجال .

ولهذا الانفصام في شخصيته الخطابية اسباب ترجع الى نفسيته وشخصيته العامة ، فالخطيب الذي يبلغ افئدة الناس واهواءهم يعوزه غير الصراحة والجراة ان يكون خبيرا بمواقع رضا الناس يلين ويشتد في الوقت المناسب، ومن شرائط الخطباء ان يتنزلوا الى الجمهور حتى يلبسون احيانا ثياب الملق والرياء ، وزكي مبارك صريح جسور لا يعرف الطريق الى تسقط رضا الناس ، انه يصدع بالراي الذي يراه ، ويدعمه بالحجة ، ويدور حوله كالوثني حول الضم فهو خطيب على شريطته هو لا على شريطة الجمهور ، واتصور ان مباركا لو واجه الناس بهذه المقالات التي يدبجها لهم لم تخل جولة من معركة تسيل فيها الدماء وتثخن الجراح ! وكيف يواجه الجمهور رجل بدوي ال لا يؤمن ان تظهر بوادره والنظارة شهود ، وعواطف الجم الحفيل لا تنضبط بسناد من الحكمة والرزانة ؟! واذا فالميدان الصحيح لتجواله هو الاوراق التي يسطر فيها ما يشاء بعيدا عن تلاقي الجمهور ، وجذابهم لخناقه ، فاذا اثاروا المعارك في وجهه معترضين على آرائه ثارت القراطيس بالمداد الاحمر لا بالدم النجيع !

وحادثة واحدة واجه فيها مبارك الجمهور في مناظرة ادبية تقطع بانه ما كان يقدر ان يعتلي المنابر ليكون خطيب الشاهدين لا خطيب القارئين ، تلك حضوره مشهدا للمناظرة في موضوع مقترح هو : « انما يزدهر الادب في عهود الفوضى الاجتماعية » (٤) وحين حمل الدكتور المبارك لواء التأييد في هذا الموضوع الخطير انبرى له الناس معارضين وزادوا فسخفوا اراءه ، وسمع المبارك الشتائم تنهال عليه وخرج من المناظرة مجروح الكرامة مهيض النفس وقال معقبا على هذه المعركة التي خسر فيها كثيرا : « امثلي يشتم جهرة في كلية الاداب ؟ وقد حملت على كاهلي احجار الاساس ، هو ذلك ، وعلى نفسي انا الجاني ، فقد عرضت سمعتي للجدل ، الذي يسمونه مناظرات ، ومزقت آرائي كل ممزق » .

أين زكي مبارك الخطيب في هذه المناظرة ؟ لقد خرج منها بصفقة المغبون لانه لا يحسن ان يخطب الا في الاوراق ، وبعد ان يكون بينه وبين الجمهور سدا منيعا ، وحجابا شديدا !.

لقد فات زكي مبارك شرائط الخطيب في اكثر من موضع : حمل عبء الدفاع عن فكرة لا يعتنقها وانما فرضت عليه فرضا ، وراى ان بيانه المطيع سيسعفه بالحجة والاقناع ، ولا كذلك يكون الخطباء فالخطيب صاحب راي ينبع اقناعه من حرارة قلبه ، وصدق منطقه ، وصحة برهانه ، ولم تكن السفسطة البلاغية التي زعموها من منازع الخطابة الا بابا من الكذب لا تنطلي الا على المخدوعين، ومثلها في الكذب والزيف وعدم التأثير مثل المبالغة في الشعر لا قيمة لها ولا وزن .

وثورة الجماهير على آرائه هي الفرصة التي كانت تظهر اقتداره على امتلاك ناصية البيان فكان يستطيع بوسائل الخطباء المقتدرين ان يكسب الجولة ويحول الجماهير الى صفه في هذا المعترك الصاخب ، واذ قصر عن اقناع الناس في هذا المقام المشهود ، وعرض لهم صفحته حتى نالوا منه — فهو غير صاحب هذا المقام .

وقد اتخذت كتابة الدكتور المبارك في مجالات قليلة صبغة الرمز ، ومن ذلك مقالاته التي كتبها عن ادم وحواء (٥) وجعل من هذا الاسلوب ستارا ليعبر عن بعض ارائه في مأمن من الصراع، وقد علل الكاتب نفسه اصطناعه هذا الاسلوب في ختام مقالة له بعنوان « بين الورق والدوح » فقال : « الله وحده يعلم قصة الورق والدوح ، وهو الذي يعلم ، كيف افر من التصريح الى التلميح لينجو الورق من الافتضاح » .

وها نحن اولاء نشهد لونا جديدا من كتابة المبارك خرج فيه على المألوف من كتابته فبين اسلوب الخطابة واسلوب الرمز شأو بعيد ، ولا شك ان هذا الاسلوب من آثار ثقافته الفرنسية ، وقد كان لتلك الثقافة اثار واضحة في كتابته، استفاد منها منهج البحث والحيوية في التعبير كما نضح هذا التاثر على الوان من اساليبه ولكن المؤكد ان اسلوب زكي مبارك العام يدين للادب العربي بالتأثر اكثر من اي مؤثر اخر كما اشرنا الى ذلك من قبل ، واذا كان قد اتخذ الرمز والتلميح احيانا اسلوبا للتعبير فهذا لا يعني انه انتقض على طبيعته الاصيلة في التعبير ، طبيعة الصراحة والوضوح والمواجهة بالفكرة ، وانه لطبيعي ان يلجأ المبارك الى الرمز في بعض كتابته ، فهذه المقالات الرمزية بالقياس الى اسلوبه نوع من التجديد ، والخروج من العادة المألوفة، والنفس تنشد هذا الخروج احيانا لما فيه من استرواح واستطراف ، وربما كان نوعا من التجريب ، وهو — يرحمه الله — كان مغرما بالتقلب بين الوان من الدراسة ، وربما مر ببعض ازمات النفس فحتمت عليه اصطناع الاسلوب الرمزي .

ومهما يكن من امر فقد كان زكي مبارك نمطا واضحا في اسلوبه الكتابي بين الكتاب المعاصرين ، ومهما يكن من شأن طريقته الكتابية ، فحسبه ان ادبه كان صورة صادقة لنفسه وانه كان لونا في ادبنا المعاصر لا بد منه ولا حيلة فيه ؟

الفيوم — محمود محمد سليمان

ندى

عذر العيون ، وقد خطر ،
حسن روى صفو الزمان
الله يا سكب النداوة
يا دوف عطار بدارين ،
شرقت بمطلبك الظنون ،

هذا الرواء العبقري ،
يأبى الجمال الشهم ان
نحن الالى ، ما همنا
حسب الحياة رحابة
نضوى على ذكر العيون ،

يا نسخة الحسن الشهي ،
عينان ، لا عدن تزار ،
من لوزة يندى الربيع ،
نثر الفتون على العيون ،
كبر كاحلام الملوك ،
مرت بلفتتك السماء ،

يا قامة ، قعد الخيال
الرصف من كف المنى ،
ظل الرماح ؟ واي ظل
ميد الغصون ؟ ورب غصن
عفو اعتدال في القوام ،

جيداء ، ما بلغت مفاتن
تبدو وتفرق في النعيم ،
ما كرم هامون توشى
ولكم يروعك مرسل
دفء تسلسل من قطار
يا ضافرين الغار ، اين
شت القطيع بأرض جلعاد ،

صوت كما لهف النداء ،
لون من الشجو البعيد ،
لمس الاساطير العتاق ،
بسمت فأغوت حوة
يا صحو ايام الربيع ،
البابلي معتق ،
والسامرون تناهدوا
رفي على لهب الحشاشة

ان راح يفترق البصر
ونأى بالملح الغرر .
من قوارير السحر ،
ويا وادي الخمر ،
فأي حلم ينتظر !

الا تمهل ان عبر ؟
تجدي الجراح ، وان يذر
طول الزمان او القصر ،
ان نستجاب ، وتختصر ،
ويستبد بنا الخبر .

هزئت بعدك بالصور ،
ولا البنانات الاخر ،
للوزة يشهى القمر ،
فكل جارحة نظر .
على اتشاحك بالخفر ،
فأي ضوء يبتكر ؟

بظلها ، ريا الخدر ،
والدر من بحر الخزر .
ماج طيبا او زهر ؟
في تأوده انكسر ،
وعفو لين في الكسر .

جيدها ، لولا الدرر ،
سلمت يا حلو الثمر .
بالنضار او ائتزر .
جثل ، تهدل وانسدر ،
الليل - معجزة الشعر .
المالكون على العصر ؟
فيا طيب الاثر !

وقام للنجوى وتر ،
كأن غيبا ، او قدر ،
وراح يشجى للذكر .
الشفتين بارقة الاشر ،
ورف نديان الشجر ،
والمسك ضوع وانتشر ،
ليطول عهدك بالسمر .
يا ندى ، يندى العمر .

انطون قازان

الباشكاتب

بقلم مصطفى ابو النصر

كان المفروض ، ان ينجز ابراهيم افندي السيد، بعض الخطابات ، التي يجب عليه تقديمها للباشكاتب اليوم ، ولكن حدث ان دخلت عليه سيدة ، وهو منهمك في كتابتها . وسألته ان كان هو ابراهيم افندي السيد . فتأملها ، محاولا ان يتذكر هذا الوجه. وعندما تأكد من انه لم يره من قبل ، اسند ظهره على الكرسي ، واجابها بصوت تعمد ان يكون جادا :

— نعم .. انا هو .. اي خدمة ؟

لم تنتظر منه دعوة للجلوس . سحبت احد الكراسي ، وجلست عليه ، في الجهة المقابلة لمكتبه ، ثم ابتسمت له ابتسامة شاحبة ، وقالت بصوت خافت :

— لا تؤاخذني ، سآخذ بعضا من وقتك .

تذكر في تلك اللحظة ، نظرات الباشكاتب اليه ، وهو يرمقه بعينيه الضيقتين ، من خلف نظارته السميكة . وكيف انه سيمطره سبابه ورذاذ فمه ، فشعر بشيء من الضيق . ولكن وجه السيدة الابيض ، واسنانها اللامعة ، جعلتاه — الى حد ما — يتحمل هذه العطلة المفاجئة وانتظرها كي تفصح عن سبب مجيئها ، الا انها لم تنطق بكلمة ، فخيل اليه انها ربما تعتقد انه يجب ان يبداها بالحديث .

وكان يمكن ان يفعل ذلك ، تخلصا منها اولا ، وغيرة على الخطابات المنتظرة ثانيا . ولكنه لم يفعل ، بقي صامتا ، وعلى وجهه ظل ابتسامة . وتوتر الموقف ، ولمح الموظفين من حوله ، يسرقون النظرات من فوق ملفاتهم .

وخطرت برأسه فكرة : فتح الدرج ، اخرج علبة السجاير ، قدمها اليها :

— اتفضلي سيجارة

— متشكرة .. انا لا ادخن .

— اذن .. ماذا تشربين ؟

— كلا .. شكرا .

— لا يمكن

وبسرعة اندفعت يده الى الجرس المعلق خلفه ، وجاء الساعي فطلب لها زجاجة ليمون .

كان من الضروري — بعد ذلك — ان ينجلي الموقف . فارتكز بجسمه على المكتب ، وبصوت خافت سألها :

— اي خدمة يا هانم ؟

ارخت من جفنيها ، واهتزت شفتاها قبل ان تنطق :

— انا جئت من طرف الاستاذ شكري عبد الغفار .

ما ان سمع ابراهيم افندي هذا الاسم ، حتى اعتدل في جلسته تماما ، وعلى الفور تذكر من هو شكري عبد الغفار : الباشكاتب السابق ، كان بينهما ود متبادل ، وكان رجلا طيب القلب ، لا يذكر انه اساء الى احد من الموظفين معه. ولاحت له تلك الايام ، وكأنها حلم .

فجأة ، دبت في الحجرة حركة غير عادية ، او هي فعلا عادية ، في حالة دخول الباشكاتب . ارتعشت اطراف ابراهيم افندي ، وشعر انه في موقف متميز ، وخاصة حينما لاحظه يرمق السيدة ، بنظرات فيها تساؤل ، مليئة بالضيق والغيظ ، فحاول ان يبتسم له ، عساه ان يخجل . او يحول نظره عنها ، ولكن صوت الباشكاتب ، كان قد انطلق يسأله :

— كتبت الخطابات يا ابراهيم افندي ؟

لم يكن لديه من الوقت ما يفكر فيه ، فخرجت من فمه كلمات خائفة :

— حالا يا افندم حالا .

وخرج الباشكاتب من الحجرة ، التي كان الصمت قد سادها .

ولكي يداري ابراهيم افندي حرجه ، فقد ابتسم اليها قائلا :

— الله يمسيك بالخير يا شكري افندي ، كانت ايامك اياما حقيقية ، لن يعود مثلها ابدا .

وسكت برهة ثم استطرد قائلا :

— هو دائما بهذا الشكل .. يشخط .. ينطر .. كما لو اننا عبيد عنده .

لم تعلق السيدة بشيء ، وانما رشفت اخر جرعة من الزجاجة ، ثم وضعتها على المكتب وهي تشكره . واطرقت وظلت صامتة . وكان ابراهيم افندي قد بلغ درجة من الضيق ، جعلته يفكر جديا في سؤالها ، الا ان لسانه لم يطاوعه ، تذكر معاملة شكري افندي له ، فخجل من نفسه ، وتلفت حوله ، كان الموظفون منهمكين في اعمالهم ، فالقى نظرة جامدة ، على الخطابات المطلوبة منه ، وظل محدقا فيها ، حتى انتبه على صوت السيدة .

— من فضلك يا ابراهيم افندي .

وتلجلجت فانقذها قائلا :

— افندم .. اي خدمة ؟

— شكري افندي ارسلني اليك في موضوع .

— شكري افندي يأمر .. ونحن ننفذ ... ايوه يا هانم .

حدقته بنظرة متسائلة ثم قالت :

— يبدو انك لم تر شكري افندي من مدة .

فبدا عليه الاسف وهو يقول :

— نعم .. منذ عام تقريبا .. الواحد مقصر .



ــ أذن فحضرتك لا تعرف ما الذي اصابه .

فقال منزعجا :

ــ اصابه .. خير .. حصل شيء ؟

كان وجهها قاتما . وبدت شفتاها مضمومتين بقسوة وهي تخبره :

ــ لقد فقد بصره ..

فوجيء ابراهيم افندي ، وشعر كان لسانه قد لجم ، وظل برهة صامتا ، ثم تمتم :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله ..

امتدت يد ابراهيم افندي ، واشعل سيجارة . في الواقع ، ان هذا الخبر كان مفاجئا له فلم يكن شكري افندي يشكو من علة وكانت عيناه سليمتين . وفكر ان يسألها عن السبب ، ولكنه لم يستطع حتى ان يسألها عمن تكون بالنسبة لشكري افندي . وكانت السيدة تنظر اليه ، وقد بدا عليها اضطراب شديد . ولكن الخبر . وما فيه ، لم يفسر له حضورها ، ان كان ذلك فقط ، هو كل ما تريد ان تقوله له . وانفتح عقله على فكرة ، وايقن انها ربما تكون السبب في زيارتها ، ولكنه لم يحاول ان يسألها ، فقد خشي ان يكون مخطئا في ظنه ، او متطفلا بشكل يجرح شعورها . ومضت فترة صمت ، كانت ثقيلة جدا ، فقال لها محاولا ان يخفف من حدة الجو الذي بينهما :

ــ سأذهب اليه اليوم .

التفتت اليه السيدة ، بحركة اثارت دهشته ، وقالت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ، تنم عن ان ثقلا قد انزاح من على راسها :

ــ اهلا وسهلا .. لقد ارسلني كي اطلب منك هذه الزيارة .. انا شقيقته .

ــ تشرفنا .

ــ الحقيقة انه في حالة نفسية رديئة جدا ، ولا يطيق أن يزوره احد ، ولكن هو الذي ارسلني لك دون أن تعلم زوجته .

ــ الله يكون في عونه ، طبعا ذهب الى اطباء .

ــ طبعا ، ولكن حضرتك عارف الاطباء .

ــ هل اجريت له عملية ؟

ــ عملية والثانية ولا فائدة .

ــ اظن انه في نفس البيت ؟

ــ ايوه .

ــ سأزوره عصر اليوم ان شاء الله

ــ متشكرة جدا .

ووقفت مستأذنة ، فسلم عليها وتبعها الى باب الحجرة . كانت يدها باردة .

•

جلس ابراهيم افندي ، امام مكتبه صامتا ، ثم اشعل سيجارة . ولاحظ زملاؤه حالته فساله احدهم :

ــ خير يا ابراهيم افندي ؟

وعلى الرغم من انه لم يكن ينوي ان يخبر احدا بما حدث ، فقد وجد نفسه يقص عليهم الحكاية ، وكان من بينهم اثنان عاصرا شكري افندي، فأبديا اسفهما بشيء من الجفاف ، وبطريقة تقليدية ، جعلت ابراهيم افندي يحول بصره عنهم جميعا ، دون ان يتفوه بكلمة اخرى في الموضوع ، وقد شعر بالندم . ووقع بصره على الخطابات ، كان منظرها بالنسبة له ــ في تلك اللحظة ــ شيئا سخيفا ، ذلك انها بدت تافهة، لا تتضمن اية قيمة ، اذا ما قورنت بالمصيبة التي حلت بشكري افندي. وتمثلت امامه المأساة ، فعاد ينظر الى الجالسين معه : ان احدا منهم لا يفكر في مصيره ، فقط يعيش كالكلب ، وفي لحظة ، تصدمه سيارة .. عندئذ تلقى جثته بجانب الرصيف ، ثم ينتهي كل شيء . وتصور نفسه جالسا في ركن البيت عاجزا عن الحركة والرؤيا . فانتفض في جلسته ، وامتدت يده فطوت الملفات في حركة عصبية دون ان ينجز منها شيئا . وما كاد يفعل ذلك ، حتى دخل الباشكاتب ثائرا ، واندفع نحوه ، وقد نفرت عروق جبهته ، فخيل الى ابراهيم افندي ، ان عيني الباشكاتب قد اخترقتا زجاج النظارة .

انتاب ابراهيم افندي برود شديد ، فلم يلتفت تجاهه واقترب الباشكاتب منه ملوحا له بيده :

ــ اين يا ابراهيم افندي الخطابات ؟

ــ لم اكتبها بعد .

فضرب الباشكاتب المكتب بيده :

ــ ما معنى انك لم تكتبها بعد ، لا بد من ارسالها حالا .

اخرج ابراهيم افندي المنديل ، ومسح وجهه ، واجابه بمنتهى البطء :

ــ انا اصلي تعبان .

ــ تعبان .. العمل ليس فيه تعبان .. انت هنا يعني لازم تشتغل

اخترقت الكلمات اذن ابراهيم افندي فانفتح عقله عن المعنى الحقيقي لها : جثة يجب ان تلقى في الشارع ، جثة هامدة ، لا ضرورة لها . المهم .. المهم جدا ان تكتب الخطابات . ان توقع الخطابات . ان ترسل الخطابات . ليس احد مسؤولا عمن يكتبها او يوقعها او يرسلها اذن .. الان هو في نفس الموقف . وغدا .. من يدري من الذي عليه الدور . قد يكون هو او هو او هو . المصير الواحد ، وليكن هو البادىء .

وهب واقفا ، اخذ ، لا ، بل خطف ، علبتي السجاير والكبريت من على المكتب ، ودفسهما في جيب الجاكتة . واغلق الادراج بالمفاتيح ، ثم نظر للباشكاتب نظرة مشحونة بالاحتقار والغيظ ثم قال في تحد :

ــ انا اليوم في اجازة مرضية .

لم ينتظر اجابة ، او موافقة ، او تعليقا . غادر مكتبه ومضى خارجا من الحجرة . وعند الباب جاءه صوت الباشكاتب عاليا :

ــ غدا سترى يا ابراهيم افندي.

القاهرة **مصطفى ابو النصر**

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

ذكرت في المقال السابق ان الثقافة الغربية تقوم على ثلاثة اسس : ١) التراث الاغريقي و ٢) التراث الروماني و ٣) التراث المسيحي . واحسب ان القارىء الكريم قد لاحظ انني اضربت عن استعمال كلمة (مدنية) واخترت كلمة (ثقافة) بدلا منها . ولعله يتساءل عن السبب ، فيوافق على قراري او يخالفه . ولكنني توضيحا للقضية اشرح فيما يلي شرحا موجزا الفرق بين (المدنية) و (الثقافة) في الاستعمال الحديث كما اعرفه عند البعض . فالمدنية عبارة عن مجموعة العلوم والمعارف على اختلاف انواعها ، بما في ذلك العلوم الطبيعية والصناعية والفنية . والثقافة عبارة عن حالة من الرقي الفكري الاجتماعي ، بدون ان يدخل في ذلك الرقي الصناعي والفني الحديث . فاذا اخذنا بلدا اوروبيا كبريطانيا مثلا ، وجدنا ان فيها مدنية وثقافة ، وثقافتها تقوم على نظمها البرلمانية وحرمة القانون والتمسك بالحريات الفردية واعتباراتها الاخلاقية والدينية بصورة عامة . وقد تكون روسيا في الوقت الحاضر اكثر مدنية واقل ثقافة ، مع انها كانت حتى اوائل القرن العشرين اقل مدنية واكثر ثقافة ، وقد تكون فرنسا اكثر ثقافة لما لها من تاريخ عريق في تطوير الافكار النظرية والاراء الاجتماعية والانظمة الانسانية ، ووثوق اتصالها بمدنية القرون الوسطى ، بعكس بريطانيا والولايات المتحدة مثلا ، فهما اقرب الى العصور الحديثة .

ومن اشهر من كتب في هذا الموضوع او تعرض له المؤرخ الالماني المشهور « اوزفلد شبنكلر » في كتابه « انحطاط الغرب » . فقد فرق هذا المؤرخ بين المدنية Civilization والثقافة Culture ، وعدهذا المؤرخ ان المدنية هي آخر مرحلة من مراحل الثقافة ، حينما تصبح تلك الثقافة تقنية او فنية صناعية . ويقول هذا المؤرخ ان الثقافات العالمية تمر في ادوار اربعة في حياتها وهي دور الشباب ودور الاكتمال ودور الشيخوخة ثم دور الفناء . ويقول ان الثقافة الغربية آيلة الى الزوال وستحل محلها ثقافة جديدة غير الثقافة السابقة . ويوافق على ذلك بصورة عامة المؤرخ الالماني « مارك » ، ولكنه يرى ان الذي سيخلف الثقافة الغربية الحالية لن يكون ثقافة اخرى ، وانما يكون مدنية قائمة على الفنون الصناعية ، ويكون الدين وعوامل الثقافة الاخرى فيها ضعيفة او تكون معدومة مع تمادي الزمان ، حتى ان اللغة تفقد كثيرا من مقوماتها الجمالية كالاستعارة والمجاز وحسن الاسلوب وما الى ذلك .

وللمؤرخ الانكليزي المشهور « طوينبي » راي معروف في هذا الموضوع . فهو يرى ان المدنية تمر في ادوار اربعة قبل ان تنقرض ، وهي دور التكوين ودور النمو ودور الانهيار ودور التفسخ . ولكنه يخالف شبنكلر في امرين مهمين : الاول انه لا يؤمن بنظرية الحياة في تطبيقها على التاريخ وتدرجها من دور الشباب الى دور الاكتمال ثم دور الشيخوخة فدور الفناء . والثاني انه يخالف شبنكلر في ربط المدنية بجيل او عرق بشري معين . وطوينبي بين المؤرخين قريب الى نظرية الفيلسوف الالماني « هيكل » ويسير معه فيها الى حدمحدود ، ثم ينفصل عنه ، ولكنه يقف موقفا مضادا للنظرية الماركسية في التاريخ المعروفة بالمادية التاريخية التي تعتبر ان كل تغير في المجتمع راجع الى تغير كيفية الانتاج .

وكنت قبل مدة اقرأ كتابا للشاعر والاديب الانكليزي المعروف ت. س. اليوت بعنوان « تعريف الثقافة » . وقد لاحظت ان هذا الاديب يتحاشى ان يفرق بين (الثقافة) و (المدنية) باعطاء تعريف لكل منهما يميز الواحد عن الاخر ، وانما قصر بحثه على اعطاء تعريف للثقافة فقط . ويظهر جليا من تعريفه ان الثقافة عنده تقوم في الغالب على الدماثة في الخلق واساسات الحكمة والفلسفة والفنون والاداب والمعتقدات الدينية والمبادىء الاجتماعية. ويرى ان المفكرين والفهماء هم الذين يتخصصون بالقضايا الفلسفية والبحث فيها بالاضافة الى ثقافتهم العمومية في النواحي الاخرى . وهو يرى ان الثقافة الغربية تعتمد على التراث الاغريقي والتراث الروماني والديانة المسيحية، ويرى ان الثقافة الغربية وحدة قائمة بذاتها ، واكبر جامع وموحد لها هو الديانة المسيحية قبل اي عامل اخر .

هذه الوحدة الثقافية التي تمتد فوق حقبة من التاريخ تزيد على الفي سنة يعتبرها كثير من المؤرخين والكتاب الاوروبيين بأنها سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام لها ، او انه يجب ان لا يكون لها انفصام . وعلى هذا فان المدنية العربية الاسلامية التي نشأت منذ القرن السابع كانت من واد غير وادي الثقافة الغربية ، ولذلك اعتبرت هذه المدنية بأنها فصمت عرى الاتصال والتماسك في تلك الثقافة ، بل اعتبرت بأنها غريبة ، ويمكن تجاهلها . وقد تجاهلها فعلا كثير من المؤرخين الاوروبيين ولم يوردوا لها ذكرا عند البحث في مدنية القرون الوسطى او ثقافتها . مع ان هذه المدنية كانت مدنية زاهرة في زمان كانت اوروبا فيه منغمسة في حمأة من الجهل وسادرة في مهام الفوضى والظلام ، وليس بمستغرب ان يطلق الاوروبيون على القرون الوسطى او على القسم الاول منها اسم (القرون المظلمة) .

وقد انجرف بعض الادباء العرب في تيار أولئك المؤرخين الاوروبيين ، فآمنوا بان المدنية العربية حينما عمت حوض البحر الابيض المتوسط من الشرق والغرب قد فصمت اتصال المدنية ، وراحوا يدعون الى اعادة المياه الى مجراها، وذلك عن طريق تشجيع الدراسات الاغريقية وترجمة المخلفات الادبية الاغريقية والرومانية . واذكر ان دراسة اللاتينية والاغريقية كانت من مواد برامج الدراسة في المدارس الثانوية العليا في فلسطين في زمن الانتداب ، واذكر ايضا ان الياذة هوميروس المترجمة الى العربية قد ادخلت ايضا في مواد البرنامج في اخر عهد الانتداب .

واذا تكلمنا عن وحدة الثقافة في الغرب ، فهل يصح لنا ان نتحدث عن وحدة ثقافية في البلاد العربية ؟ واذا كان ت.س. اليوت ، كما ذكرت آنفا ، مصيبا في قوله ان الديانة المسيحية هي اكبر جامع وموحد للثقافة الغربية ، فهل يصح ان نقول ان الديانة الاسلامية هي اكبر جامع وموحد للثقافة العربية ؟ واذا لم تكن الديانة الاسلامية بهذا الموضع من الثقافة العربية ، فما هو الذي يجمع بين العرب في مختلف بلادهم من المغرب الى حدود فارس ؟ هل هو اللغة العربية ام هو وحدة التاريخ ؟ فاذا كانت الثقافة في تعريفنا هي مجموعة العادات والاتجاهات الفكرية المشتركة والمبادىء الاجتماعية العرفية ، فلا شك ان للديانة في ذلك مدخلا كبيرا ، لانها تصبغ عادات المجتمع بصباغ خاص بها ، وتجعل من ذلك المجتمع وحدة قائمة بنفسها ، فتميزه عن غيره من المجتمعات الاخرى التي لها ثقافات مختلفة . والشعب شعب بحسب ثقافته اولا ، وليس بحسب مدنيته بحكم الضرورة ، اذا اعتبرنا ان المدنية تشمل الثقافة وتشمل ايضا الحياة التكنولوجية والعلمية الطبيعية . والمدنية ابعد من ان تفرق شعبا عن اخر كما تفرق الثقافة ، وخصوصا اذا قصدنا بالمدنية ما قصده (مارك) الذي اشرت اليه سابقا ، لان المدنية حينئذ تكون واحدة في جميع الاقطار . ولكن المدنية ، كالمدنية الغربية في الوقت الحاضر ، تؤثر اكثر ما تؤثر في الشعوب الاخرى عن طريق محتواها الثقافي وليس عن طريق محتواها التكنولوجي وهذا الذي عنته « مارغريت ميد » في كتاب لها عن حياة بعض القبائل البسيطة حينما قالت ان الثقافة الغربية تستعمر الشعوب الاخرى استعمارا نفسانيا ، بمعنى انها تنزع منها عاداتها ومفهوماتها الاجتماعية وتغرس مكانها عادات ومفهومات جديدة غريبة عنها . والذي يحدث في هذه الحالة ان الفرد من تلك الشعوب يفقد ما كان يعتمد عليه في كيانه النفساني من عادات ومبادىء اجتماعية ويستبدل بها غيرها من غير نتاج قومه ، فلا هو يحتفظ بماضيه ولا هو ينسلك مع جديده انسلاكا طبيعيا . هذا من جهة واحدة . ومن الجهة الاخرى فان النظم الجديدة تحطم النظم القديمة ، فيصبح الانسان مجافيا لمجتمعه ولثقافته ويصبح قلقا بعد ان فقد ركائزه ودعائمه الاولى . هذا ما نسميه بالمجافاة .

وعلى هذا ، فانني لا اجد في البلاد العربية الان وحدة ثقافية جامعة ولو انها تأثرت بالثقافة الغربية على اختلاف انواعها من ثقافة كاثوليكية وثقافة بروتستانتية بحسب الدول الغربية التي حكمت البلاد العربية . ولم يعد العامل الديني عاملا جامعا بعد ان فقد سيطرته على النفوس ، وبعد ان اقبل المسلمون على الثقافة الغربية وتطبعوا بطبائعها ، وكانوا قبل القرن العشرين او حتى الى اوائل القرن العشرين يتحاشون عنها لكونها مدنية غير اسلامية. والمثقفون العرب عموما في الوقت الحاضر يبعدون كثيرا عن ثقافتهم الاصلية ، فلا تصبح الثقافة الاصلية عاملا في التوحيد بينهم ، بل ان كثيرا من المفكرين بينهم يتنكرون الان للثقافة العربية ، وقد بلغت المجافاة لهذه الثقافة عند البعض منهم انهم اخذوا يدعون الى نبذ كل علاقة بالماضي، ومن الجملة نبذ العلاقة بالتراث اللغوي العربي ، وهو اقصى ما وصل اليه الانتفاء negation من الماضي . وليست هذه حركة مقتصرة على البلاد العربية او بعض البلاد العربية ، وانما هي حركة ظهرت في اوروبا الغربية، وخصوصا في ايطاليا ، في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين ، وظهرت بمظهر واضح جلي في روسيا بين الادباء والفهماء الروس في القرن التاسع عشر . فقد انقسم هؤلاء قسمين : ١ـ قسم الغربيين الذين كانوا يدعون الى الاقبال على المدنية الغربية اقبالا جامحا ، ومن بينهم هرزن ، بلنسكي ، تركنف ، غرانوفسكي ، باكونين . ٢ ـ وقسم السلافونيين الذين كانوا يدعون الى المحافظة على الثقافة الروسية ، ومن بينهم خومياكوف ، اكساكوف كيريفسكي . ولكن فكرة السلافونيين تغلبت ،واندحرت فكرة الغربيين ، وخصوصا بعد منتصف القرن التاسع عشر . وهذه ظاهرة غريبة في روسيا ، لان اكثر الفهماء يهاجمون اول ما يهاجمون قواعد الثقافة بين قومهم ، تخلصا مما تستلزمه هذه القواعد من ظلم وتفريق بين الطبقات .

لندن — حسن الكرمي



محمد رجب البيـــومي

ثورة في بلاط المناذرة بالعراق

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

اخذ المنذر الرابع بن ماء السماء ملك الحيرة ، يعض على شفتية في حنق ، ويصعد زفرة ملتهبة من صدره ، تخفي وراءها بركانا من الفيظ المضطرم ، على هؤلاء الذين شقوا عصا الطاعة عليه ، وتوافدوا باسيافهم المرفوعة ، ورماحهم المشرعة على قصر الخورنق يحاولون ان يخترقوا سياجه المنيع ، ليطيحوا براسه دون خوف او اشفاق ، ولولا ان الابواب الحديدية الغليظة والاسوار الشاهقة الحصينة تقف في وجوههم ، لسال دمه هدرا في الصباح ! ماذا تراه يصنع وقد تألب عليه كل مصاحب ، حتى حراس القصر وحجابه لم يثبتوا قليلا في ساعة الفزع بل تسللوا من السراديب المختفية هاربين ، ولولا ان ولده النعمان قد اخذ للموقف عدته ، فأحكم الابواب بنفسه ، وطاف على النوافذ يوصد حديدها ويغلق ما يظنه مدعاة للخطر لما أمن حشمه في القصر وحرماته في المقاصير على انفسهن من هؤلاء الذين كفروا بنعمته ، وتركوه نهب الوجل ، لا يدري ما تصنع به الايام ..

ثم مضى به فكره المضطرب الى ايام مجده ومسرته حين كان غض الشباب ، ريان الفتوة يمرح في سلطان والده المنذر الثالث بن ماء السماء ويرى الوفود وراء الوفود تهوى الى قصره ضارعة لائذة ، لا يرفع احد راسه في حضرته ، ولا يجرؤ انسان على الكلام دون استئذان فاذا أمر بشيء تزلف اليه كل سامع باجابة أمره ، حتى كسرى نفسه عاهل الفرس وملك الشرق كان يبعث الاساورة والمرازبة اليه ، خاطبا وده ، ومستعينا به على اعدائه الروم ومؤيديهم من الفساسنة ، وطالما راى الهدايا الفارسية تفد الى رحاب ابيه مثقلة باوساق الذهب واحمال الفضة ، وابن ماء السماء لا يستخفه زهو ، ولا تطيش به خيلاء ، بل يتصدر مجلسه هادئا رزينا ، ووفود الناس يتقاطرون على تقبيل يده صفوفا صفوفا ، خافضي الرؤوس ضارعي النفوس فاذا اذن لهم بادروا بالرواح مبتهجين اذ شرفوا برؤية صاحب الحيرة ، وتفضل فاذن لهم بتقبيل يده عن سماح ! وانه لمجد عظيم ! .

ماذا جد من الاحداث ، حتى قلب الامر راسا على عقب ! انه اخي الطاغية عمرو بن هند ، قد ورث ملك ابيه قبله ، فسار اسوأ سيرة ، وامعن في العرب من تميم واسد وربيعة قتلا وتشريدا ، ثم تجاوزهم الى سكان الحيرة انفسهم وهم اعوان ملكه وعضد سلطانه ، فنكس الرؤوس واذل الرقاب ، واصبحت عاصمته تغلي بالحقد والكراهية عليه وعلى آل المنذر بن ماء السماء جميعا ، حتى وقعت الواقعة ، وجاء عمرو بن كلثوم في ملء من تغلب ، فشاهد ما احرج عزته واذل كبرياءه اذ صرخت امه في وجهه تستنصره وتستعينه ، فثأر لها بالسيف من رقبة الطاغية العنيد ، ورقصت الفرحة في قلوب الناس ، حين رأوا جبار الارض يرتمي على التراب مضرجا بدمائه ، وكان اول الشامتين الفرحين من حوله من اهل الحيرة اذ رأوا متنفسا لاحقادهم في مصرعه ، فاندفعوا يتحزبون ويتحرشون . واخذت ملك ابي من بعده ، فماذا وجدت ؟ وجدت هيبة السلطان تتساقط متخاذلة منذ مصرع عمرو ووجدت خولنا واتباعنا يتصدرون مجالس الملك في عظمة واعتداد، ويناقشون الرأي ابديه كأنه راي بعض الناس ، وكنت اكتم غيظي متربصا يوما استعيد فيه مجد ابي ، وهيبة جدي ، ولكن الزمان يكر ، وكلمتهم تعلو ، ورؤوسهم تتشامخ وتتايه ، وكم اصدرت من امر فرأيت المعارضة والتفنيد ، حتى بلغ كسرى في ايوانه بعض ما يحيط بي من قلق وارتباك ، وتلك التي اهتم منها وانصب ، فلما ضاق بي المأزق ، وعزمت على ان ارجع الى الملك بأسه وهيبته بدات فأوثقت في الاغلال بعض المتمردين دون ان اعجل بمصارعهم ، فهبت علي الريح من كل صوب واخذ الرعد مسمعي من كل مكان ، ثم زحفت الجموع الغفيرة بخيولها وسيوفها وقسيها تحاصر الخورنق ، وتطلب دمي مرتقبة ان تهوي راسي كما هوت راس عمرو ! ويا له من نزق غرس الشر فجنيت عاقبته . وحمل المعول فهوى على راسي !

---

(١) كانت زوجتهقبل ان يرثها ولده النعمان بعد ابيه جريا على عادة المناذرة .

ثم طرق سمعه وقع اقدام خفيفة تقترب من حجرته ، فتوقع ان تأتيه زوجته الشابة الفاتنة (المتجردة ١) ! وحاول ان يذهب ملامح الحزن من وجهه ، فاخذ يستجمع ثباته ، لتقع زوجته منه على رجل جلد حازم لا تزعزعه الكوارث ، واخذت شفتاه تنفرجان عن ابتسامة لا تظهر الاطمئنان قدر ما تظهر مرارة الاسف ، ومرارة الغيظ ، وقد صح ما توقعه فأقبلت المتجردة لا كما تعودت ان تقبل في ثياب البهجة وبين افواف النعيم ، بل تصنعت بعض الحزن المفتعل لتقف مع زوجها وقت الشدة او تريه انها تقف معه على الاقل ، وكان المنذر ذا فراسة شفافة يكشف بها تيارات خفية تعتلج في نفس صاحبته الحسناء ، فهو يعرف انه وهو ابن السبعين قد اختطف عذراء شابة لم تبلغ الثامنة عشرة من احلامها الذهبية في خيام البادية بنجد ، حين جاءته الانباء تعلن سحرها الخلاب ، وجمالها الصارخ ، وتؤكد انها اجمل غادة سطعت عليها شمس الصحراء ، فنسي وقار الملك ، وجلال المشيب وبعث الى ابيها خاطبا ، وحلت السعادة الرفافة على قلب الوالد الطامح اذ اصهر اليه ملك العرب العظيم فساق كريمته متعجلا الى قصر الخورنق ، ونبه شأنه بين مشايخ القبائل في البادية ، فأصبح مناط الامال يتزلف اليه من يرغب في جاءه المنذر ونعيمه ، اما الفتاة الشابة فقد استشعرت فرحا منعشا لذيذا حين علمت بادىء ذي بدء انها ستكون سيدة الخورنق وربة التاج في الحيرة ، وان عشرات الوصائف سيقفن امام سدتها ملبيات طائعات ، وطارت بها الامال كل مطار حتى اقترنت بصاحبها شيخا متآكلا لعبت به السنون واقعدته هموم الملك واعباء السلطان ! لقد غاب عنها فارق السن حين علمت انها ستكون مليكة الحيرة ، وغمرتها الاضواء الخادعة حتى انستها حقيقة ما هي مقدمة عليه في عشها الجديد ، ومضت الايام بها في الخورنق وهي لا تجد في حجراته الدافئة ، وحدائقه الناضرة وذهبه المتوهج ما يطفىء حرارة تشتعل في قلبها المتوثب ! وتحول القصر في عينها الى سجن ذهبي يخدع رواؤه حين تؤلم حقيقته ، ولم تجد بدا من الخنوع كيلا تفجع والدها الطامح في آماله من ناحية ، وكيلا يضطرها الزوج الطاغية الى مركب ناشز يفضي بها الى الهلاك من ناحية ثانية ، فكانت تريه السكوت المطبق دون ان تخادعه ببهرج زائف من القول لا يلمس حقيقتها من قريب او بعيد ، والرجل الشيخ يفهم عنها كل شيء ، ويحاول ان يرفه عنها بذهبه ومآكله وملبسه ، ثم هو يستطيل عليها وعلى اسرتها المتواضعة بعظمة الملك وجلال السلطان ، فماذا يفعل الان ؟ وها هو ذا ملكه العزيز يترنح تحت قدمه ، وها هي ذي المتجردة تأتي اليه في ساعة العسرة متكلفة الحزن ، متظاهرة بالاسف وهي في دفينة نفسها لا تأسف على فائت ، ولا تجزع على فقيد ، انه ليقابلها بود وحنو ، ثم يهمس في اذنها ان القوم منصرفون لطيتهم بعد حين ، وانه قد بعث الى كسرى ليمده باثني عشر الفا من اجناده وسيصلون عن قريب ! وتمتد كلمات التشجيع والتعزي الى مدى محدود ، حين يقدم النعمان بن المنذر فيسر الى ابيه انه يلمح زيد بن حماد العبادي يقف امام الخورنق ، وقد طلب الدخول بمفرده على الملك ، يشاوره في الامر ، ويقنعه برغائب الجمهور ، ويفيق الملك من سكرته ، فيأذن للوافد الراغب ، ويأمر ولده ان يفتح لزيد باب القصر فهو كما عهده سيد مطاع لا يغدر ولا يمين ! ومن يدري فلعل بشائر الاستقرار تشع من سفارته المخلصة ، اذ طالما سفر بين المناذرة والكسرويين في فارس ، وبينهم وبين العرب من البداة واهل الحيرة فعادت سفارته بالسلام والوئام ، وتدرك المتجردة ان انتظارها مع المنذر في هذا المشهد لا يليق ، فتنسحب في هدوء ، ويطير النعمان ليفتح باب الخورنق على عجل ثم ليصطحب زيدا الى ابيه ويتركهما كما شاء زيد ، دون ان يشهد عن كثب منحدر الحديث !

كان زيد بن حماد سيدا من سادات الحيرة ، وفد على كسرى ، وحذق الفارسية وكتب في ديوانه الى الامراء والملوك بالعربية والفارسية معا ، وكان موضع ثقة الاساورة والمرازبة من دهاقين فارس ، واصحاب الكلمة المسموعة في الايوان ، وقد اراده كسرى على ان يكون ملك الحيرة بعد عمرو بن هند ، ولكنه امتنع واصر ان يظل الملك كحالته في بني المنذر بن ماء السماء ، ثم انه هو الذي مدح المنذر الرابع وزكاه في البلاط الكسروي حتى ارتضاه صاحب الايوان ملكا بعد اخيه ، وقد حفظ له المنذر هذه اليد البيضاء فكان يعنو لمشيئته ويستجيب لشفاعته ، وينزله بالمحل اللائق بين وجوه الحيرة واعيانها من الكبراء ، فحين دخل عليه في محنته الراهنة ، تيقن انه معجزة الخلاص وباب الانقاذ ، ونهض اليه يعانقه ويتوسل اليه كغريق يتشبث بطوق النجاة ، وقد جلس زيد هادئا رزينا ، ولمح ما يجول في خاطر الملك من هواجس ، ثم رفع راسه يقول : لا ادري ايها الملك المحنك كيف غابت عنك تجارب حياتك ، فلم ينفعك مصرع اخيك ، وحاولت ان ترد مورده دون اعتبار ؟ فنظر اليه المنذر متحيرا وقال في هدوء بارد : افصح يا زيد عما تريد ، فانني مترقب سميع !

فأسند زيد ظهره الى المقعد واندفع يقول :

تعلم ايها الملك اني تقلبت في بلاط كسرى زمنا ليس بالقليل ، فشاهدت من الدسائس والوشايات ما بغض الي صولجان الحكم ، وابهة السلطان وكنت ارى كسرى وهو يتململ مغيظا برما بما يحيط به من السعايات المغرضة والمؤامرات المسمومة فاعلم انه يعيش في جحيم مندلع السعير ، وانما نحسده عليه من جلال السيطرة ، وراء العظمة لا يساوي قليلا ازاء ما يغرق فيه من هواجس وشكوك ، وما الشجون ، فاذا قبل فقد نجا بنفسه ، وان كانت الاخرى

يصطفى من خاصته رجلا امينا يكون موضع سره وملجأ بثه حتى تفضحه الايام بعد حين ، اذ يستغل ثقة الملك لينكل بخصومه ملصقا بهم شر التهم وافدح الخيانات ، واقلها كراهية كسرى والعمل على تقويض ملكه ، وتلك تهمة تقشعر لها ابدان الحاكمين ، فيصدرون احكامهم الجائرة بالقتل والتخريب دون ان تتاح للابرياء سبل الدفاع والاقناع ! ان ملكا هذا شأنه لقمين ان ينأى عنه كل عاقل حصيف ، وانت تعلم ايها الملك ، ان كسرى قد عرض علي ملك الحيرة فلم ار في سرابه اللامع ما يطفىء ظمئي ، وكنت حريصا على ان يظل الامر في آل المنذر فاقنعت البلاط بما اعتقد وتم لك ما تريد على يدي ، وما جئت هنا لامن عليك بشيء قد عرف وذاع ، ولكن لاعرض عليك الجديد ان كنت تريد ! فكتم المنذر قلقه المتبرم وقال في شبه توسل : قل كل ما لديك دون مواربة فان الحقيقة لا تحتاج الى قناع !

فتفرس زيد في وجهه قليلا ، وقال : لقد وفد الي الملأ من اعيان الحيرة ووجوهها يعلنون مبايعتهم لي بالملك ويذكرون انهم يقفون صفا واحدا من وراءي ، وان البلاط الكسروي لا يتردد لحظة في تأييدي ، وهناك ولدي عدى بن زيد يكتب للعاهل ، ويحمل رسائله الى الملوك ، ويدخل عليه في اوقات راحته ، وبين ندمائه وكؤوس شرابه ، واقمار مجالسه ، فاذا شئت تم ذلك في يسر يسير ، ولكن رايي القديم في الملك والسلطان يبغضني اشد التبغيض فيما يأملون ، وقد فكرت في الامر فاطلت التفكير ، ثم اهتديت الى ان ازورك الان ، فآخذ عهدك على ان تلتزم بما اشير !

فأسرع المنذر يقول : انت يا زيد زورقي في عباب هذه الاحداث ، فاذا شئت حملتني الى الشاطىء فرحمت شيخوختي المتهالكة ، واذا شئت خذلتني بين اللجج والامواج في بحر متلاطم ! فاكون من الهالكين ! فتبسم زيد في رفق وقال : ستكون من الناجين لا الهالكين ، اذا تقيدت برأيي عن ثقة ! ايها الملك ان الايام تدور بالعبر ، وان هذه الرعية من حولك قد تفتحت عيونها وشخصت نواظرها ، ولم تعد غافلة كما كانت ايام المنذر الاول والنعمان الاعور ، اذ ان سقوط اباطرة الرومان ، وملوك الفرس وتداول مصارعهم بين الناس قد ازال عن الملوك كل هيبة وعرف كل عربي في الحيرة وما جاورها من بطون العرب في البادية انكم اناس تأكلون وتشربون وتظلمون وتبطشون ، وان البغي اذا استشرى وطم فلا بد ان يصطدم بما يفل قوته ، ويكسر موجته ، ثم جاء مصرع عمرو بن هند على رؤوس الاشهاد دليلا على ان الظالم الفاجر لا بد من افنائه تمزيقا بالسيوف ووقصا بالرماح ! فلما قدر لك ان تأخذ الامر من بعده سلكت بعض مسالكه في الاثم والعدوان فتألبت عليك الجموع !

فانفجر المنذر يصيح : ماذا صنعت يا زيد ، حتى تقرنني بعمرو بن هند وتهيء لي مصيره الرهيب ! فقال زيد في حزم : اني امنك الان عن مصيره الرهيب ، واذودك عن كل طارىء محيق اما ان اردت ان تعلم ما صنعت واقترفت فهاك بيانه في غير مواربة وتمويه : لقد علم رجال الحيرة جميعا انك ارسلت اعوانك الى بني تميم في ديارهم النازحة فهتكوا الحرمات ، وذبحوا الرجال ، وساقوا لك الغنائم والاسرى وفيهم المحصنات من النساء ، والكرائم من الابل والانعام ، والنفائس من الفضة والنضار . . . ثم تجرات فعرضت ذلك في موكب حاشد ماجت به ضفاف السدير ، دون ان يعرف لهؤلاء ذنب معلوم ، والعربي في الحيرة اخو العربي في مضارب الخيام من اسد وربيعة وتميم !

فهز المنذر رأسه وقال : ثم ماذا ؟

فقال زيد : وكانت ثالثة الاثافي ان يجبر ولدك النعمان ولدك الاسود بن المنذر الى صومعة العباديين فكسر هيكلها وحمل ما بها من تماثيل الذهب والفضة وقتل الشماس والراهب ! مع انك تتظاهر بالعطف على النصرانية ، واكثر رجال عاصمتك من هؤلاء الذين يحبون المسيح ، ومن ليس معهم في دينهم يسوءه ان يعتدي على الامنين ، ويتربص بنفسه ما وقع لغيره على يد الاسود وابيه المنذر وآل ابن ماء السماء !

فنظر الملك نظرة شاردة وسأل ثم ماذا ؟

فقال زيد : وكانت ثالثة الاثافي ان يجبر ولدك النعمان مارية بنت اوس على الاقتران به فاذا نفرت عنه لاشياء تشينه في عينها ساق ثلة من جنده واقتحم دار اوس فقتل اخاها الغيور وتهدد والدها الهرم وحملها كالاخيذة الى منزله دون اعراس وتلك التي هاجت حولك الهوائج الان ، وكانت القطرة الاخيرة التي سال بها الاناء ! هذا غير ما في سجونك من الابرياء تحشدهم هناك حشدا غاصا حتى امتلأ بهم المكان فوضع المنذر جبهته على كفه ثم عض بنانه كالنادم وقال متحسرا : وماذا لديك في الخروج من هذه الظلمات ؟

فارتفع صوت زيد كانه يتحدث في مجتمع حافل وصاح : لقد خطبت القوم مرتين صباح اليوم في شانك ، وعرضت من الحلول ما يعصم الدماء ، فثارت حولي الثوائر ، فتركت مكاني مغضبا وهممت ان اعتزل الناس ، ولكن حلماءهم وذوي اسنانهم قد تدافعوا من حولي ، يرجون ان الي الامر فاحسم الشر ، ففكرت وفكرت ثم قلت يا قوم اني ذاهب الى المنذر اعدد له اخطاءه وابصره مواطىء قدمه ، وكيف تتزلزل ارضه القلقة من تحته دون استقرار ، ثم اعرض عليه ان يظل ملكا بالاسم فقط ، واكون انا الحاكم الفعلي حتى تستريح الخواطر وتهدأ الشجون ، فاذا قبل فقد نجا بنفسه ، وان كانت الاخرى

الورقاء

ارسلت شدوك في الصباح بكاء   فاثرت داء في الفؤاد عياء
لله نوحك ما أمض رنينه   وأرق لحنك اذ شدوت مساء
ذكر الغريب ربوعه فجرى الاسى   من مقلتيه مدامعا ودماء
وذكرت الفك في الضحى فبكيته   أسفا وكان النوح منك غناء
وأمض انواع المصائب في الورى   ما يستثير الضحكة الصفراء
كم بسمة زهراء تخبىء دونها   جرحا وتخفي عبرة خرساء

ورقاء كاد الليل يرفع ثوبه   الضافي ويطوي الراية السوداء
والفجر في آفاقه ما يأتلي   من غيه في حيرة عمياء
يرنو الى الدنيا بمقلة عاشق   شاقته ذكرى فاضطنى اعياء
عيناه نهب للبكاء ، وقلبه   من وجده في رعشة خرقاء
تنتابه الذكرى اذا بعث الهوى   في أضلعيه جهنم الحمراء

مد الصباح الى الرياض ذراعه   شوقا وعفر جبهة شماء
كم قبلة للصبح في كنف الربى   شمخت لها بنت الربى خيلاء
قبل كما شاء الهوى محمومة   بعثت سمادير الرؤى اغراء
مدت لها العذراء من حرق الهوى   شفة مضرجة المنى لمياء
نار من اللذات تورث صدرها   غصصا وتوري في الضلوع الداء
والورد من شغف الى قبل الضحى   مد الرؤوس تلهفا ورجاء
وترب امنية تساور غصنه   تركته يطرق في العشي حياء

غني فقد طاب الغناء ورجعي   لحنا يكن لذوي القروح عزاء
كم سجعة لك كالاماني حلوة   رجعتها قرب الغدير عشاء
قد ارثت في الصدر نيران الاسى   وهنا وأبكت مقلة مهراء
شد الغريب على الحشا من شجوه   بيد وأجهش حرقة وعناء
ويح الغريب اذا تملك قلبه   يأس ومل من البعاد ثواء

ورقاء ما ابهى الحياة لمبصر   فهم الجمال وقدر الاشياء

دمشق   عدنان مردم بك

فقد صدقته الحديث !

فتألق وجه المنذر ، ونهض الى زيد يحتضنه في محبة وتقدير ، ثم قال له والدمع يترقرق من عينيه : لقد فقدت الامل في النجاة ضحى الفداة حين رأيت حراس القصر يتسللون من السراديب المختفية ، وقلت في نفسي اذا كان رهطك الاقربون ممن يتقلبون في نعمائك قد انضموا الى عدائك ، فما بقاؤك في الخورنق وليس معك غير الحرمات والاولاد ! واني يا زيد اعاهدك على ان اكون رهن اشارتك ، وطوع مشيئتك ولن انسى لك هذا الموقف الجديد كما لن انسى يدك القديمة حين اشرت على كسرى بتوليتي بعد عمرو !

فاسرع زيد يقول : لقد انتهت الثورة اذن وستنزع الجموع المحتشدة الى ديارها في غير ضوضاء ثم يفد اعيان الحيرة في اليوم المقبل فيسلمون علي في قصرك وانت الى جواري تتلقاهم بالبشاشة والترحاب !

فبادر المنذر يهتف هوذاك هوذاك! ثم صفق بيده فحضر ولده النعمان بن المنذر وكان على مقربة دانية يتسمع سرا ما يصل الى اذنه من الحديث فلمح البشر في وجه أبيه فروح عنه ذلك قليلا ثم استمع الى المنذر يقول سر وراء عمك زيد ، حتى يخرج مكرما مبجلا ، فقد طوقنا بيد بيضاء ووهب لنا ارواحنا وسلطاننا دون تيه وامتنان . وخرج زيد ففرق الجموع وطمأن النفوس ، ورجع النعمان ، ليحدث اباه بما كان .

الفيوم   محمد رجب البيومي



محمود بن الشريف

محمود تيمور والقضايا العربية

بقلم محمود بن الشريف

هناك قضايا ادبية يثيرها بين الفينة والفينة كتاب وادباء ونقاد لا تلبث ان تشتجر فيها الاراء وتتباين حولها الاحكام ، ويدلي كل بدلوه ، ويظاهر كل فريق انصار واتباع واشياع ، وغالبا ما تنحرف المناقشات وتنقلب الى مهاترات ثم تراشق بسخيف الاتهامات وسوقي العبارات. وفي ميدان الادب قضاة عدول وحكام لارائهم قيمة ووزن من هؤلاء الاستاذ « محمود تيمور » ذلك الاديب العالمي الذي يبلور آراءه ويعرضها بعيدا عن ميدان الجدل والسفسطة والمناقشات البيزنطية ، فهو يربأ بنفسه ان يزج بها في ميدان المهاترات الصحفية وتأبى نفسه السمحة النزاعة الى السلام الا ان ترقب المعركة عن كثب .. ثم في تؤدة العالم الحكيم ورزانة الخبير الوقور يدلي برأيه الفيصل وحكمه القاطع في كتاب خاص افرده لهاتيك القضايا .. تؤيده الادلة المنطقية والاسانيد التاريخية ويزينه لفظ مختار وعبارة سهلة ممتنعة . من ذلك القبيل كتابه « مشكلات اللغة العربية » وكتابه « الادب الهادف » وكتابه « فن القصص ودراسات في القصة » وهذا الكتاب الاخير مرجع ادبي تاريخي واف عن القصة العربية وتأريخ لحياتها وخصائصها ورسالتها، وتبيان للازمان والازمات التي مرت بها القصة العربية بوجه عام ، ثم حديث جامع صادق عن القصة العربية الحديثة من مولدها الى ان بلغت سن الرشد وتمت لها عناصر النضج والجمال والتسامي من نطاق المحلية الى المجال الانساني العام وقد تناول « تيمور » في مؤلفه هذا القضايا الادبية التي اثيرت في محيطنا الادبي فحللها وعللها وحسم فيها برايه ، بعد ان ايده بالدليل التاريخي والبرهان المنطقي ، فنعى على هؤلاء الذين زعموا ان الادب العربي خلو من القصة وقال : « لقد سارعنا الى الانكار على الادب العربي ان فيه قصة ، وما كان ذلك الانكار الا لاننا وضعنا نصب اعيننا القصة الغربية في صياغتها الخاصة بها واطارها المرسوم لها ، ورجعنا نتخذها المقياس والميزان وفتشنا عن امثالها في ادبنا العربي ، فاذا هو قد خلا منها او يكاد ، وشد ما اخطأنا في هذا الوزن والقياس فللادب العربي قصص ذو صبغة خاصة به ، واطار مرسوم له ، وهو يصور نفسية المجتمع العربي وخلاله فلا يقصر في التصوير ، واننا لنشهد فيه ملامحنا وسماتنا وضاحة ، وكأننا لم نفقد في مجتمعنا العربي ـ حتى اليوم ـ ما يكشف عنه ذلك القصص من ملامح وسمات ، على الرغم من تعاقب العصور وتطاول الآماد ـ وهو في جوهره وثيق الصلة بالوشائج الانسانية التي هي جوهر القصص الفني وان تباينت الصياغة واختلف الاطار ... الثقافة العربية ـ على ترادف احقابها ـ تزخر بالقصة مختلفة الشكول والالوان ، فالمجرى القصصي في هذه الثقافة موصول لا ينضب له معين . في كل عصر له مظهر ، وفي كل منحى من مناحي الحياة له مجال ، وفيما تستظهره الان من بقايا الثقافة العربية شاهد عدل وبرهان ساطع ، فما ظنك بما فقدناه ـ على توالي الاحداث ـ مما لا نعرف من شأنه الا اثرا بعد عين ، في فهارس تسرد ، واحاديث تروى ، فأين مثلا كتاب « قيد الاوابد » الذي الفه « البنجذيهي » في اربعمائة مجلد ؟ وأين كتاب « العالم » الذي بداه صاحبه « احمد بن ابان » بالفلك وختمه بالذرة ؟ وأين كتاب « المسعودي » المسمى « اخبار الزمان » الذي اختصره مرة بعد مرة فكان المختصر الاخير ما بين ايدينا من كتبه يحيل فيها على الاصل الشامل الوافي ، ليدلنا على ما يحويه من استعاضة وتوسع واستيعاب ؟ واين مكتبة خلفاء الاندلس تلك التي كان فهرسها اربعة واربعين من المجلدات ؟!

كما تحدث اديبنا « تيمور » عن الملاحم القصصية في شعرنا العربي ، واثبت كذلك ان الادب العربي لم يخل من هذا النوع الذي نسميه « الشعر الملحمي » ، فقد تساءل في كتابه هذا قائلا « وما نصيب الشعر العربي من القصص ؟ » ثم اجاب عن هذا التساؤل بقوله : « لقد فرغ نقاد الادب ومؤرخوه من الجواب عن هذا السؤال بان الشاعرية العربية لم تثمر القصة ولا الملحمة ، وهم لم يختلفوا الا في تعليل هذه الظاهرة ، فذهبوا في ذلك مذاهب شتى . والحق الذي يجب ان نظاهر في تأييده والاحتجاج له ان الادب العربي لم يخل من هذا النوع الذي نسميه « الشعر الملحمي » وان كان الشبه غير

قريب بينه وبين ملحمة « يونان » ففي شعر العرب اوصال الملاحم واجزاؤها وعناصرها ، بيد انها لم تجتمع في نسق واحد ، ولم تلتق على وحدة جامعة .

وقد انتبه لذلك علم من اعلام النقاد العرب في القرن السابع الهجري ، ذلك هو « ابن الاثير » الاديب اذ يقول : « اذا اراد الشاعر العربي ان يشرح امورا متعددة ذوات معان مختلفة في شعره واحتاج الى الاطالة فانه لا يجيد في الجمع ولا في الكثير منه ، بل يجيد في جزء قليل منه ، وعلى ذلك فاني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة . فان شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من اوله الى اخره شعرا ، وهو شرح قصصي واقوال ، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها .. » ونحن نقرأ الشعر الذي يتردد فيما بين ايدينا عن ايام العرب ونقرأ المقطوعات التي تتخلل شعر « الاعشى » في التحدث عن القرون الخالية وسير الاولين ، وما نظمه من حادثة « السموءل » في ابياته الرائية ، ونقرأ كذلك قصيدة « لقيط بن يعمر » العينية ، ومعلقة « عمرو بن كلثوم » النونية ، وقصيدة « الحطيئة » الميمية في تصوير الضيافة العربية ، وما يجري في الوان الشعر الحماسي من حكايته للاحداث وللاحوال ، وتصويره لمعترك الغرائز والنزعات منذ فجر الادب العربي الى عصر « المتنبي » بل العصور التوالي ، فتسفر لنا ملامح وسمات من الملحمة لا يعوزها الا لم الشتات وربط الاجزاء وتنسيق البنيان .

ثم تناول تيمور في هذا السفر القيم قضية « الفن » وهل الفن للفن او الفن للمجتمع ، فعرضها في ايجاز وتركيز ، ثم توجها برأيه الصائب قال « وقد ثارت بين ادباء القصة عجاجة الخلاف حول هذه الدعوة ، وانقسموا فريقين : فريقا يجأر بان « الفن للفن » فمحال ان يذعن للتقاليد والاوضاع ، أيا كان مصدرها ، عابرة كانت او مستقرة ، ومحال ان يخضع لمطالب ترسم له وتفرض عليه ، مهما يكن من شرف هذه المطالب وصلتها بالحياة الاجتماعية ، وفريقا يجهر بان « الفن للمجتمع » فمن حق المجتمع عليه ان يجنده كما يجند سائر القوى الحيوية في سبيل الصالح القومي ولوجهة الخير العام ، ومن واجب الفن ان يسهم بنصيبه في علاج ادواء المجتمع وامداده بوسائل النهوض والمضي الى الامام .

وعندي ان كلا الفريقين يفصل بين الفن والمجتمع فصلا واضح العلائم ، فيثير نزاعا ليس له في حقيقة الامر من ثمر ، ذلك لان الفن الاصيل هو غرس البيئة ونبت الحياة .. اعني انه وليد المجتمع : قلبه الخفاق .. روحه الوامضة .. احساسه المتوهج فيه تتجمع اخفى الخوالج لهذا المجتمع بما يحويه من آمال وآلام ، فالفنان ان اخلص لفنه ، واستصفى شعوره استجاب حتى لما يحيط به من مختلف البواعث والمؤثرات ، فيصدق تعبيره عن البيئة والمجتمع في الصورة التي تسخو بها موهبته ، غير محدودة حريته أو مسلوبة طلاقته وغير مكره ولا ملزم بتقاليد واوضاع يعمل وراء اسوارها في عبودية واعتقال . وان فنا يتكامل فيه الاخلاص والصدق والقدرة ، لهو فن يجد فيه المجتمع احسن ما يبغيه من غذاء وشفاء . واما اذا اقحم الكاتب فنه اقحاما للاشادة بفكرة او التغني بدعوة ، مسوقا الى ذلك بغرض من الاغراض ، او مخدوعا بتوجيه من التوجيهات ، دون ان يستجيب شعوره استجابةحقة لتلك الفكرة او الدعوةالتي يتخذها محورا للاشادة والتغني ، فان فنه في هذه الحالة يخونه لا محالة ، وانه ليتمخض عن اباطيل لا يخفى تلفيقها على الناقد البصير . والمجتمع لا تقوم دعائمه ولا تبقى الا اذا كانت لبناتها مصنوعة من خداع وزور !! فالفن للفن ، والفن للمجتمع يترادفان ما دام الفن صادق الوعي صحيح الالهام » .

ثم تطرق الكتاب الى الحديث عن قضية الفن والجمهور : هل نتنزل بالفن الى مستوى الجمهور ؟ او نتسامى بالجمهور الى ذروة الفن ؟.. قضية يتجاذب النقاد طرفيها بين حين وحين ، وكلما سكنت ثائرة التحاور بينهم في شأنها ، عادت كما كانت ، او اشد مما كانت لادنى مناسبة تعرض ، ومتى سكنت بين طائفة من النقاد استأنفها نقاد اخرون ، في قابل من الزمن قريب او بعيد .. لهذه القضية توأم او شبيه ، وما برحت تلك القضية الاخرى مثار النزاع بين الباحثين والكتاب ، يجادلون في اثرها لا ترتفع لهم خصومة ولا ينقضي جدال . اعني : قضية اللغة .. هل نتنزل بالفصحى الى اللغة العامية التي يجري بها التخاطب : لغة الجمهور؟ او نتسامى بالجمهور الى الفصحى لغته الخاصة ولسان الثقافة ؟ ويبدو ان مثل هذا الخلاف يقوم في كل شأن من شئون الحياة .

اما فيما يتعلق باللغة فاني ارى ان الفصحى والعامية تلتقيان على الطريق في نحو من التصالح والمؤازرة ، الفصحى تطوع قواعدها واساليبها لكي تلبي مطالب الحياة ولكي لا يستعصى على الجمهور ان يتخذها له اداة تعبير والجمهور بجانب ذلك يتزود بالقراءة والاطلاع فيصدف عن العامية ويأنس الفصيح ، واذن يتضاءل سلطان العامية عليه بقدر ما تملك الفصحى من ناحية البيان . واما في الفن فأهم ما يجب التنبه له ان التنزل بالفن الى الجمهور لا يعني الاسفاف والابتذال ، وان التسامي بالجمهور الى الفن لا يعني التكلف، والافتعال :

الاول تخلف بالفن لا يرضاه الطموح ..

والاخر عبث ، لا جدوى فيه ، ولا غناء ..

لو تدبرنا قضية الفن والجمهور : ايهما ينزل الى اخر ؟ لادركنا ان الامرين لا يتعارضان ، متى هدفنا الى تزكية الفن ونفع الجمهور معا ، على درجة سواء .

القاهرة محمود بن الشريف

واخيراً .. قد وجدت معشوقة الفؤاد .. ولا بد لك ان تودع الصبر لو استمعت الى قصة حبي .. وهي قصة آدميتي . فقد طال بي الحنين الى ان احب وان احب .. اليس الحب امرا طبيعيا ؟.. ان قصة حبي قصة عجيبة حقا. والبطلة امراة شابة احبتني اولا ثم تزوجتني بعد حين .. وهي قد غضت النظر اغضاء تاما عن قبح منظري . ذلك القبح الذي جعل العيون كلها تتحول عني ، وجعل النفوس كلها تشمئز ..

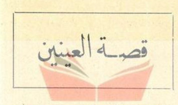
وقد جاهدت امي لتجد لي زوجة. وكان عاقبة سعيها الفشل . فليست هناك امراة ترضى بأن تكون زوجة لرجل — قرد .. ولما ناءت امي تحت عبء هذا الحمل الثقيل من الخيبة . باتت فريسة للامراض التي لم تبرا منها ابدا ..

ان امي التي كان من عادتها ان تطفىء بندى حنانها لهيب قلبي المحترق بين آونة واخرى — على الاقل — .. قد ابقت العلاقة متصلة بيني وبين هذه الدنيا التي لا حب فيها وذلك عن طريق خيط براق من حبها ..

ان امي التي كانت هي جوهر حياتي .. والتي كانت تجد لونا من الجمال في دمامتي الفظيعة .. ان امي التي وصفت قد ماتت وخلفتني وحيدا .. ثم حدث ما سوف اقصه عليك : لقد سمعت وقع ضربات عصا ثقيلة فوق درجات السلم ، ثم طرق اذني صوت فتاة تستجدي وتقول : شيئا من الصدقة يا سيدي لبائسة فقيرة .. ثم مضت تقول : انا لا ابصر شيئا في الوجود ! فنظرت اليها مرة اخرى . ثم صوبت النظر الى عينيها فكان منظرا يثير الاشفاق .. ثم نسيت نفسي .. وفكرت في امر الفتاة الضريرة المسكينة التي تحيا حياة تعتمد فيها على حاستي اللمس والسمع ليس غير ..

ولم تكن الفتاة ذات منظر حسن . ولكن تناسق جسمها قد كان فيه سحر الشباب وفتنته . فيا لها من فتاة مسكينة ! ان قلبي انجذب اليها !

وتقدمت اليها — في ادب — اطلب اليها ان تدخل وتجلس . واخذت هي تتحسس طريق الباب . فنهضت اقودها بيدي . وكانت هذه اول مرة المس فيها يد امراة شابة بقلب اثقلته الانفعالات المكبوتة .. ثم نظرت الى وجهها ، وقد اضفى الشباب عليه لونا من الجمال على الرغم من عينيها العمياوين .. وكان صدرها الناهد غير بعيد من صدري .. وقبل ان استطيع المضي في التفكير بدات انتفض كمن انتابته الحمى ..


قصة العينين

الكاتب الهندي ك . ت . محمد

ترجمة مبارك ابراهيم

واحسست بأن شفتي قد اصابهما الجفاف .. ثم بدات الهث واخذ صدري يضيق .. وقلت لها : تستطيعين ان تجلسي هنا . واخذت بيدها الى المقعد في طرف الشرفة . فهل احست هي بيدي المرتعشتين ؟ ثم قدمت لها شيئا من الطعام الذي طهوته .. وكذلك اعطيتها « روبية » وقالت لي هي ان اسمها (ليلى) وانها وامها الشيخة تعيشان في كوخ من القش يقوم الى جوار مصنع كبير في المدينة . ولما همت بالرحيل طلبت اليها ان تجيء مرة اخرى ..

وتوالت زيارات (ليلى) ثم اصبح مجيئها عادة . وكنا نتكلم في كل الموضوعات .. واحسست — الى حد ما — ان قد خف ما يضيق به صدري من عبء ثقيل . وان سويعات الحياة قد اخذت تبدو محببة الي .. ولو كانت عينا (ليلى) تنظران لزاد ذلك في جمالها .. اليست النظرة من عيني امراة كفيلة بان تصيب الرجل بالجنون ؟ وهذا شيء لم اعرفه الا من تجارب الاخرين .. ان قلبي الجائع له اشواقه واشتهاءاته .. وآه .. لو كان لليلى عينان ؟ وانا اعرف ان هذه الامنية انما هي امنية سخيفة مجنونة .. ذلك لان ليلى لو كان لها عينان ، فربما كانت تأبى ان تكون شحاذة .. وحتى لو كان قد كتب عليها ان تكون شحاذة فما كانت ترضى مني بشيء غير الصدقات ! بل ان عينيها ما كانتا تسمحان لها بان تجيء وان تتحدث الى رجل مثلي كل يوم ..

وتنبه القوم وظلوا يترقبون ساعات لقائنا . ولكن احدا منهم لم يخالط قلبه الحسد . ذلك لاني كنت من قبل — لفرط دمامتي — هدفا للسخرية . فلما ظهرت قصة حبي لفتاة عمياء اتيح لهم موضوع جديد ليضحكوا مني .. وكانوا يرون في الجمع بين العمى وبشاعة الشكل سبيلا الى اللهو والتسلية ..

وسألت (ليلى) ذات يوم : ماذا ترين في امري ؟ فكانت ابتسامتها التي تنطق بالخجل مبعث سرور عظيم لي .. ثم الححت عليها أسالها ان تفصح فأجابت في رقة وحنان : وهل قلت من قبل انك رجل غير صالح ؟ احسست ان جوابها كان مبعثه الوفاء فتولاني الزهو .. ثم سألتها — في نوبة من الانفعال — اتحبينني يا ليلى ؟ فأحنت راسها خجلا ولم تقل شيئا . فأحسست ان سحر الدنيا جميعا قد تراكم في هذا المنظر .. وسارعت ليلى الى الذهاب ..

واخيرا .. قد اصبح لدي اسم استطيع ان انطقه نطقا محببا في هذه الدنيا الواسعة الموحشة .. واخيرا



أيضا ، قد أصبح لي واحد من الاناس استطيع ان اترقب حضوره بفرحة المشتاق .. والحياة التي كانت تبدو لي مقفرة موحشة قد اصبحت حلوة ممتعة ..

ان القوم الذين يضحكون مني هم اعدائي .. ولنفرض انهم وضعوا في خاطر ليلى اشياء من دمامتي وقبحي، فكيف تستطيع هي ان تميز بين الجمال الجذاب وبين الدمامة المنفرة ما دامت هي لا تستطيع ان تفرق بين النهار والليل . وهي التي انبأتني انها ولدت عمياء ..

ولقد عادت الي (ليلى) غداة غد. وكنت افكر في امر زواجنا . وكيف يتم ! اليس من اللازم وجوبا ان يقوم واحد ممن يقولون انهم يمثلون خلائف الله على الارض فيشهد على صحة الميثاق بين رجل وامرأة ؟

ان الذي بيني وبين (ليلى) — من حيث الدين — لمختلف جدا . فأنا مسلم وهي هندوكية .. وسألتها : أترضين بي زوجا يا ليلى ؟ واحسست انها قد تولاها الذهول فلابد ان اسلامي قد جعلها تفكر فتطيل التفكير .. ثم مضيت اقول : يكفيني يا ليلى ان تتيقني انني مخلوق آدمي .. وان الله قد ارسلك الي .. اما الطائفية فهي من صنع الانسان وحده ..

ونظرت الى شفتيها نظرة المتوسل .. واحسست كأني بت في موقف القاتل الذي ينتظر حكم القضاء .. فقد كان عليها ان تقرر : أأموت انا ام ابقى على قيد الحياة ؟ وكانت (ليلى) تلتزم الصمت . فمضيت اقول : تكلمي يا ليلى .. اني اريد ان اكون لك درعا في الحادثات . فعديني ان تسعديني ..

وقالت اخيرا : اني رضيت ! واضافت تقول : لقد سمعت الناس يقولون عني اشياء كثيرة بقصد تحقيري ، كقولهم : هذه هي حظية الرجل القرد .. فأنت — كما يقولون — لا جمال لك ..

وماذا تحسين انت يا ليلى ؟ فمضت، تقول : لست أفهم شيئا عن الجمال الذي يتحدثون عنه .. وكذلك فانا لم ار من قبل قردا .. من اجل ذلك فاني لا اعبأ بما يقولون .. وهل يختلف احساسي لو قالوا انك اجمل رجل في الدنيا ؟ وانا التي ارى الدنيا بقلبي .. وانا التي ارى الجمال والقبح عن طريق هذا القلب .. انك مسلم ، وانا هندوكية .. فاذا لم يكن لديك اعتراض فانا لا اعتراض عندي .. ولقد ظننت ان ليس في هذه الدنيا احد يود ان يحبني حبا خالصا .. ولكن .. فقلت — والقلق ينتابني — وما لزوم (لكن) هذه ؟ قالت :ان هناك (لكن) كبيرة تكمن وراء مهنة التسول . فأنا لا املك انوثة نقية اقدمها لك . وانا وان كنت عمياء فقد بدت لي حاجة في ان احب ..

ولكن اناء الشحاذة الذي ظل فارغا بعد سعي دام طول النهار قد ضحك ضحكة شيطانية من بطني وبطن امي الخاويتين .. وكان علي ان استسلم اخر الامر لعبيد الشهوات الذين كانوا يدنون مني في ساعات الظلام المرعبة .. ولا فائدة تعود عليك من انزال غضبك ومقتك علي . واعلم ان ليس في الدنيا رجل يضع شيئا في اناء الشحاذة الصغيرة باسم الاحسان والتصدق .. ولقد ظننتك تحسن الي اول مرة وانت يحفزك هذا الحافز .. فاغفر لي خطيئتي .. اما اليوم فلست اوقر احدا سواك ، بوصفك انسانا ..

ولقد تولاني الذهول برهة . ثم لبثت صامتا بضع دقائق . ثم قلت اخيرا : يا ليلى ! انها قصة انانية الرجل الحقير .. وسوف لا تمر بخاطري هذه القصة بعد اليوم .. ولزمت الصمت ..

وبعد ايام قليلة بلغ الامر غايته . وقد احدث وقوعه ضجة في قريتي .. ففي غيبة كل شاهد . ودون ان ننتظر توصية من احد . وقفنا معا : هي . وانا . (ليلى) ، و (عبد الله) .. وتعاهدنا على ان نكون شريكين في الحياة ..

وتعالت ضحكات القوم من حولنا. وظلوا يستهزئون بليلى وامها يوم جاءتا لتقيما معي.. اما افراد المجتمع المعينون من قبل انفسهم حراسا عليه فكانوا ينظرون الينا شزرا . وغاب عن ادراك اولئك الحراس ان قلبين محترقين كانا موضوع هذه القصة ، قصة حبنا وزواجنا ..

وحاولت ان ادخل البهجة على قلب (ليلى) فكنت اقول لها : دعي القوم يا ليلى يضحكون ، فلا بد ان بهم مسا من الجنون ..

وبدأنا نحيا حياتنا .. ولست اقول انها كانت حياة زوجية سعيدة، بل انها حياة كانت من وحي حافز جنوني انبعث من آدميتنا ..

ووقفت اداب المجتمع ومقتضيات العرف الديني موقف الانتقام منا .. فلم يمدد لنا احد يدا .. ولم يخطر ببالنا اننا نستطيع العيش سعيدين .. ولكنا كنا في حاجة الى ان نعيش .. وكنا قد اعددنا انفسنا لمواجهة الصعاب ..

ثم حدث ان حملت ليلى . ولم يقف في سبيل هذا الحمل انني رجل دميم الخلقة . وانها هي عمياء ... واعرنا ثرثرة الناس وسخريتهم اذنا غير واعية .

والمسرات التي ما كنت اتوقعها ابدا في حياتي قد جاءت الي تسعى فقد كنت محبا . ثم اصبحت زوجا .. وانا اليوم في طريقي لان اصبح ابا .. فحمدت الله على عمى ليلى سبعين مرة .. واتفق ان مرضت (ليلى) قبل موعد الولادة بشهرين . واستدعيت طبيبا ورجوته ان ينجيها وقال الطبيب : ليس في الامر خطورة ولسوف تبرأ من علتها . وبعد برهة سألني : هل ولدت عمياء ؟ قلت نعم ! فأعاد فحص عينيها . ثم قال : اني استطيع ان اعيد اليها البصر بعد اجراء عملية .. ولكن هذا مستحيل الان . فدعها حتى تستعيدعافيتهابعد الولادة ..

الزورة الثانية

●

لبنان هذي المرة الثانية — يحدو بها القلب اليك الحنين
في الزورة الاولى حملنا الجوى — زادا يغذينا طوال السنين
نأتي ونمضي مثل ارجوحة — تقاذفتها أنمل اللاعبين
ما خمدت غب اللقا شعلة — الا ذكت اذ عنك يوما نبين
اهكذا الاقدار تبغي لنا — تلهو فلا نهدأ او نستكين
متى ترى عهد النوى ينقضي — ويستقر الفكر في النازحين

* * *

لبنان يا بسمة ثغر الدنى — يا جنة في الارض للعالمين
يا وطنا فيه نظرت السنا — والحب للاول في كل حين
ما اطيب العيش اذا ظلل — الحب النصارى فيك والمسلمين
الدين لله وما جوهر الاديان — الا واحد في اليقين
يأمر بالخير وينهى عن الشر — ويدعو للتصافي المكين
لله لا للناس علم بما — تنعت بالكفار والمؤمنين
سرائر الانفس ادرى بها — كي يفرز الاشرار من صالحين
فلنعبد الله اذن اخوة — في وطن يغمرنا اجمعين

الولايات المتحدة **نعمة الحاج**

ومست كلمات الطبيب شغاف قلبي . وشبابي . وحياتي ! فهو يقول انه قادر على ان يعيد البصر الى عينيها .. فاذا استطاعت ان تبصر فهل ستتولاها الرجفة لمرآي ؟ انا الذي تعرفني كرجل له قلب . وكرجل جدير بالحب ؟ وهل سوف تبقى على العهد ؟ وبعد .. ماذا اقول للطبيب ؟ سأقول له : لا ! ان عينيها ليستا في حاجة الى البصر .. وحاولت ان اصرخ ثم عدت فخاطبت ليلى بقولي : ان الطبيب يقول ان عماك يمكن ان يبرأ ويشفى ! وظللت اعيد هذا القول بطريقة آلية . ثم تساءلت : كيف استطيع ان افسر لها ان عودة بصرها قد يجتث حياتي من جذورها ؟ ولكن .. اليس نعمة كبرى لدى اي انسان ان يشفى من العمى الخلقي ؟ وقالت هي : اذا استطعت ان استعيد بصري فاني اريد ذلك الا تحس انت بالسعادة ؟ واذا استطعت ان انظر اليك فانا اعرف ان حبك لي سوف يزداد .. ووصف الطبيب الدواء ثم قال : تعاليا الي يوم تستعيد عافيتها بعد الولادة . وعندئذ سوف اطيل القول في مسألة العملية ..

وولدت (ليلى) مولودا ذكرا . وظل الناس في حيرة من اجل مولد طفل غير شرعي .. وضحك الناس وكان ضحكهم عندي كنهيق الحمير .. وقالوا أن المولود قد ورث ملامح امه كما ورث عيني ابيه .. فمن من الابوين هو صاحب الحظ السعيد ؟ واستردت ليلى عافيتها وجاءت تذكرني بما انستنيه الانانية . وقالت ، انغدو الى الطبيب الان . فكذبتها القول وقلت : سأذهب اليوم لاستطلع الخبر .. وكنت كمن تقاذفه الامواج في عرض المحيط . وخرجت ثم عدت بعد ساعتين وقلت لها : ان الطبيب قد مات ! وكان علي ان احفظ في قرارة نفسي بهذا السر . وليد الانانية والقسوة .

وفي ذات يوم عدت الى البيت فشاهدت كارثة تمزق القلب اسى وحزنا . فقد زلت قدم ليلى وهي في طريقها الى مهد الوليد . ذلك لانها كانت قد نسيت ان تمسك بعصاها .. واصطدمت بالباب صدمة شديدة فتهشمت وسال منها الدم .. واسرعت بها الى المستشفى .. انها (ليلى) . انها حياتي . ودنياي ! وجاء الطبيب وانذر بخطورة الحالة .. وذهبت الى ليلى وهي راقدة تتلوى من الالم .. وتحدثت اليها فقالت – وهي تنتحب ... أانت هنا؟ اني راحلة .. وكانت امنيتي الوحيدة ان اراك بعيني مرة واحدة ! فطيبت خاطرها وطمأنتها . فاستمعت ليلى لكلماتي . ثم سادت فترة صمت .. ثم اقبل الليل .. وبدات (ليلى) تصرخ .. وجاءت امها بالوليد والقته الى جانب امه .. واخذ الطفل يصرخ والام تبكي .

فأحسست باني اصبحت عديم الحول والطول .

وفاضت روح (ليلى) في هدوء .. ولست اتذكر ما بدا مني ساعتئذ .. فقد توقف قلب عن الخفقان .. وانفجرت في اثره قلوب ، وغربت الشمس .. وقضي الامر .

القاهرة **مبارك ابراهيم**



ابرهيم ناجي

عود الى شعر ناجي المضيع

بقلم وديع فلسطين

ما زلت على موعد مع شعر الدكتور ابرهيم ناجي المفقود. وبي ثقة اكيدة بان ما وقعت عليه من شعره الضائع قطرة في بحر وثمرة في بستان. فلئن وقفت بي قلة حيلتي عند فصول ستة سقت فيها شيئا من هذا الشعر الجميل، فان بين معاشر الادباء من هو أقدر مني وأوسع حيلة في اقتناص الشوارد، واولئك موكلون بالبحث عن شعر ناجي، ودونهم خزائن الكتب ودفائن المجلات.

وآخر من هداني من صفوة الادباء الى شعر ناجي الضائع صديقي عبد العزيز الدسوقي صاحب كتاب «جماعة ابولو» ودارس الادب الحديث دراسة وعي وبصر وحسن تمحيص. فقد دلني على قصيدة عنوانها «جسر التنهدات» ترجمها المرحوم الدكتور ناجي بلغة الشعر عن الشاعر الانكليزي توماس مور ونشرها في جريدة «السياسة الاسبوعية» في عددها الصادر في ١٨ ديسمبر ١٩٢٦ موطئا للقصيدة بفذلكة نصها:

«القصيدة الآتية من اروع الشعر العربي على الاطلاق، كتبها الشاعر العبقري وهو مريض مقعد يصف فتاة بائسة انتحرت غرقا، ويستصرخ الانسانية لضعف المرأة، ويدافع عنها في شعر سلس كسلاسل الذهب. وقد نقلناها الى الشعر العربي محاولين في ذلك محاكاة الاصل بكل امانة، وان نخلق لها (الجو) الاصلي بقدر المستطاع».

وقد عدت الى صديقي انور الجندي صاحب المطولات الموسعات وساكن دور الكتب وخزائن الادب، راجيا ان يستنسخ لي هذه القصيدة فجاءني بنصها وهو:

سامها العيش كل ضنك وروع   فالحت على الردى ان يقيلا
خذ برفق هذي الضحية وارفع   بحنان هذا الجمال النحيلا

تلك اثوابها تسلسل ماء   لاصقات تشابه الاكفانا
لا تجل ناظريك فيها ازدراء   بل سلاما ورحمة وحنانا

لا تمسنها بمقت، وفكر   في اناة وأصدر الحكم ريثا
غسل الموت كل وزر وطهر   لم يدع في التي ترى غير انثى

لا تقف ذاكرا لما قد جنته   ومطيلا ما بين هجس وظن
آية الموت كل هذا محته   أترى الان غير آية حسن

بنت حواء ـ ما تزال ـ فانصف   واغتفر ما جنته يوما يداها
واذا ما غفرت اقبل فجفف   قطرات نزت بها شفتاها

وفرة (١) بعثرت بغير رواء   خصلات ما نسقتها المدارى (٢)
صفها فوق رأسها باعتناء   بينما تهجس الظنون حيارى

رب، أي الدين آوين هذي؟   ألها والد حنون وأم؟
ألها اخوة؟ ألم يكن من ملاذ   كحبيب كانت حماه تؤم

نزل الحب عن مهيب السرير   واضمحلت عواطف الاقربينا
ربنا اغفر تساؤلا في الضمير   أو من رحمة السماء نسينا؟

أكذا الحب عن بني الارض ينأى   فعلى الطيبات فيهم عفاء
«عجبا والديار بالاهل ملأى: وقفت لا ترى لديها ثواء»

نظرت للشعاع والانوار   مرسلات للنهر منعكسات
والمصابيح زينت كل دار   كيف يمسي الظلام ماوى فتاة؟

كلما مر صرصر ارعدتها   لا الدجى حالكا ولا النهر جونا
ترتضي في شقاوة اذهلتها   أي مثوى، الا الحياة مجنا

وثبت نحو مائه المتدفع   لا تبالي بردا ولجا مهولا
ناد: قل للانسان: في أي موضع   منه ترجو علا يروي عليلا (٣)
خذ برفق هذي الضحية وارفع   بحنان هذا الجمال النحيلا

مهد الان هاته الاعضاء   قبل برد لدى الحمام ويبس
ثم هذي النواظر العمياء   سج اجفانها بأرفق لمس

يا لهذي العيون قد حملتها   رسم آلامها بأروع نظره
كدر اليأس كم قديما غشتها   ولها اليوم من قذى أي كدره!

ان هذي ضحية قد رمتها   صارخات الالام من غير رفق
وأراها فريسة لفظتها   قاسيات القلوب من غير حق

ان تكن اجرمت وان تك ضلت   ضع يديها كانها في صلاة
خل آثامها وان هي جلت   في يد الله غافر المعصيات

وهي قصيدة انسانية المعاني سماوية الاهداف، فيها كثير من نفس الشاعر المسماحة وروحه الصفوح وقلبه

---

(١) الوفرة: شعر الرأس (٢) المدارى: الامشاط (٣) هذا البيت مضطرب وقد لا يخلو من زلة مطبعية.

عرفت رياها

وراء عينيها عبرت الحدود ... وقد تحديت وجود الوجود
وطفت بالمجهول ، خلف الرؤى ... اطوي متاهات الخيال الشرود
وزف لي من عبقري اللظى ... خضر المنى ثغر ندي برود
قد نم عن اسرار اسراره ... في صمته الفجر الغيور الحسود
ماذا ؟ امسكوب السنا ، حالم ... في مقلتي ، ام وجه حسناء رود
يودها القلب ، ويحيا لها ... لا يعرف النعماء قلب ودود

* * *

لقد تقاسمنا الهوى بيننا ... مني لها الحب، ومنها الصدود
تبخل بالطيف ، فلو اعطيت ... ما يمنع الطيف ، به لا تجود
رفيقها النجم ، ولكن قضى ... بين الرفيقين عثار الجدود
تريده ، وهو بعيد المدى ... تحبه ، وهو بفيض حقود

* * *

يا جامد الاحساس في افقه ... اطائعا تهوى حياة الجمود
ترنو الى الدنيا بعين المنى ... هل ضقت يانجم الدجى بالصعود
صديقك الليل على صمته ... اما الضحى ، فهو العدو اللدود
يا عبقري الليل ، حسب المدى ... جهلا ، فمن سماك سعد السعود
اعائد انت ، ولا وحشية ... في افقك المسحور ، ام لن تعود
يا واسع الخلد بافاقه ... اشقى من الاحزان هذا الخلود

* * *

من حلوة القد ، وقد زينت ... شمائل الشعر ذوات القدود
عرفت رياها ، ولا والهوى ... لا يجهل الشاعر ريا الورود
احببتها ، احببت قلبي لها ... ولم اقل : احببت زهر الخدود
يا نارها .. يرضيك هذا الذي ... اسميته قلبي ، فقلبي وقود
مناهل النعمى عصير اللظى ... لا كنت يا ذات اللظى للخمود
احلى من الحب تباريحه ... وروعة اللقيا وراء الوعود

بانياس ـ سورية **احمد علي حسن**

البار . وخسارة ان يخلو منها « ديوان ناجي » الرسمي .

ويهمني في هذا المقام ان اسجل تصويبا للفظة وردت في قصيدة ادرجتها في « الاديب » في اغسطس ١٩٦٣ (ص ١٥) ، وصاحب الفضل في هذا التصويب هو صديقي الشاعر الكبير حسن كامل الصيرفي محقق « ديوان البحتري » تحقيقا قد لا يقدر عليه البحتري نفسه .

فقد وقع في قصيدة ناجي الموسومة « دعاء للعام الجديد » بيت اوردته هكذا :

« مبتصها » لك غاية ليس السواد بها حسابك

وقد صوبه الصيرفي فجلا معناه على النسق التالي :

مبيضها لك غاية ليس السواد بها حسابك

وهكذا ننتهي الى ما سبق لنا ان قلناه ، وهو ان شعر ابرهيم ناجي لم ينشر حتى الان نشرا علميا ، وان خصائص هذا الشعر لم تدرس على النحو الذي يرضي اهل الادب الصحاح . وسلام على ابرهيم العظيم .

القاهرة **وديع فلسطين**

مجتمـــع وشاعر

بقلم حسان الحفار

* * *

المجتمـــع

يخبرنا التاريخ ان خلفاء البيت الاموي قد وصلوا الى حكم العرب والمسلمين من بعد خلاف وقتال . فقد اختلفوا مع علي بن ابي طالب في امر مبايعته بالخلافة واقتتلوا معه في موقعة صفين من اجل ذلك ثم كانت حادثة التحكيم فضمنوا لانفسهم بها حكما . وكان ان تفرق المسلمون من بعد ذلك شيعا ، ففريق اقروا لعلي بالخلافة وناصروه واتخذوه لهم حاكما شرعيا ، وفريق اقروا لمعاوية بالحكم ونصروه عليه واتخذوه لهم حاكما شرعيا ، وفريق وقفوا بعيدا لا هم من العلويين ولا من الامويين بل كانوا خصما لكلا الفريقين يضمر لهما من الحقد والدس والخديعة مثلما يضمران له او مثلما يضمر كل من هذين الفريقين للاخر .

ثم كان مقتل علي (رضي) وكان ان استلم معاوية الحكم على امة فيها شيع واحزاب وجماعات تتناكب الى تحطيم هذا البيت الاموي والى اسقاطه عن عرشه الذي ابتناه لنفسه . على ان فيها مع ذلك نصراء كثيرين لهذا البيت . ولقد دفع معاوية خصومه عن ذلك العرش بسلاحين : اما الاول فهو الجيش والحديد واما الثاني فهو الدهاء والمكر . فقاتل من اراد به شرا وقتالا وصالح من تمكن من مصالحته واحتال على من تجري عليه الحيل ، ثم وجه انظاره الى اولئك الذين سكنوا الحجاز من القرشيين والانصار : كان الناس هناك ينعمون بمكانة ممتازة ايام الرسول وايام الخلفاء الاربعة الراشدين ،فبينهم الصحابي الجليل ، وبينهم السيد الذي عاش حياته في الاسلام على خير ما يرجو من مكانة وعزة وجاه ، وبينهم من لم يعجبه حكم هذا البيت الاموي لخروجه عما الف من اساليب الحكم ، فاجتمعوا يريدون اسقاط معاوية او استقلالهم في اراضيهم . ورماهم معاوية بسلاح المكر والدهاء اكثر مما حاربهم بسلاح الحديد والجيش يريد بذلك ابعادهم حتى عن التفكير في امر السياسة . فهم اذا طلبوا مالا اغدق عليهم منه شيئا كثيرا ، واذا تغنى منهم شاعر بمنكر اقام لذلك وزنا ولا اعاره منه التفاتا واذا اجترا احد من هؤلاء الشعراء فشبب باهله ، سكت عنه على شيء من الغضب وعلى كثير من الحكمة والفكر .

روى أن عبد الرحمن بن حسان قد شبب برملة بنت معاوية فبلغ ذلك اخاها يزيد فغضب فدخل على ابيه فقال : « يا امير المؤمنين الا ترى ان هذا العلج (١) من اهل يثرب يتهكم باعراضنا ويشبب بنسائنا » ، قال « ومن هو » ؟؟ قال : عبد الرحمن بن حسان وانشده ما قال فقال معاوية : « يا يزيد ليست العقوبةمن احد اقبح منها من ذوي المقدرة » .

وما له والتشدد في اسكات هؤلاء الشعراء بالقسوة والشدة وهو الذي لا يبتغي الا الملك والحكم ، اضف الى ذلك انه كان ممن اسلموا بدافع من المصلحة الشخصية والاضطرار الى الاسلام شانه شان في ذلك شان ابيه من قبله .

كان عمر بن الخطاب اذا سمع شاعرا يشبب بامراة جلده لا يخشى في ذلك سطوة او بأسا فقد كان المسلمون جميعا من حوله مطيعين حكمه ، راضين بعدله ، منهمكين في حروبه . اما معاوية واكثر من جاء من بعد معاوية من البيت الاموي فكانوا يخشون من الشاعر سطوة ان كان كريما في قومه ، عزيزا في صحبه ، ذا خطر في قبيلته، فيتجنبون منه البأس بسكوتهم عنه .

ولقد كان من شأن هذه الامور ان وصلت بالمجتمع الاسلامي في بلاد الحجاز الى شيء من ضعف الاحترام للحكم والى تحلل – الى حد ما – من التقاليد الاسلامية واخص منها مراعاة الحرمات والعفة عن القول الفاحش . فحرمة البيت التي كانت في منعة من عبث العابث واستهتار المستهتر في الصدر الاول ايام الرسول والخلفاء الاربعة ، اصبحت في الصدر الثاني امرًا ليس له من الخطر ما يستحق ، بل اصبح هذا البيت مجتمعا لاهل الغزل يعرض فيه الرجل للمراة فينظر اليها فيرى منها وهي محرمة ما لا يراه خارج الحرم . فهذه عائشة بنة طلحة تطوف بالبيت ينظر اليها الشاعر عمر بن ابي ربيعة فيبهت لما يرى وتراه فتعلم انها وقعت في نفسه فتبعث اليه بجارية لها وتقول : « قولي له : اتق الله ولا تقل هجرا(٢) فان هذا المقام لا بد فيه مما رايت » فيقول للجارية « اقرئيها السلام وقولي لها : « ابن عمك لا يقول الا خيرا»

وقال فيها :

لعائشة بنة التيمي عنـــدى حمى في القلب لايرعى حماهـــا

وصارت النسوة الى ذلك يتزين ويعرضن للشعراء ليكون لهن فخر تشبيبهم بهن . وكانت الشريفات ذوات النفوذ وبنات عامة الشعب في ذلك سواء . ويخبرنا صاحب الاغاني عن ذلك بالكثير من القصص فمنه ان ام محمد بنت مروان بن الحكم واخت عبد الملك قد اقترحت

---

(١) الرجل الضخم من كفار العجم وهنا بمعنى الكافر عامة. (٢) أي قولا فاحشا. (٣) اسبطرت : اسرعت ـ تشتد : تعدو . (٤) القرون: الضفائر النزيف : من سال دمه أو يبست عروقه من العطش . الحشرج : نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو (٥) الجبانة : الصحراء .

على عمر بن ابي ربيعة الشاعر ان يشهرها في شعره وبعثت اليه بألف دينار . ثم يمضي صاحب القصة في ان عمر رفض ان يؤجر شعره فاشترى بالمال عطورا وهدايا وتقدم بها اليها فردت له الهدايا فقال فيها قصيدته التي مطلعها :

ايها الراكب المجد ابتكارا   قد قضى من تهامة الابكارا

او كقصة الفتاة البسيطة التي عرضت للشاعر نصيب مولى عبد العزيز بن مروان فسقته لبنا وكان قد استسقاها ماء وطلبت اليه صراحة ان يشبب بها ليشهرها فسألها :

« ما اسمك ؟ ؟ فقالت « هند » فقال : « ما اسم هذا الجبل » فقالت : « قبا » فنظم فيها :

احب قبا من حب هند ولم اكن   أبالي أقربا زاده الله ام بعدا
الا ان بالقيعان من بطن ذي قبا   لنا حاجة مالت اليه بنا عمدا
اروني قبا انظر اليه فانني   احب قبا اني رأيت به هندا

على اننا مع هذا لا نجحد لبعض من خلفاء هذا العهد فضلا على رعيتهم في ردع شاعر او منع هجر سواء اكان ذلك لطبيعة سابقة في نفس الخليفة ام لحاجة مستجدة عرضت له . فنحن على علم بان عمر بن عبد العزيز قد حرم على الشاعر عمر بن ابي ربيعة مقالة ما فيه فحش وهجر كما اننا على علم بان الوليد بن عبد الملك قد قتل وضاح اليمن لتشبيبه بزوجته . فاما الاول فقد ذهب الاكثرون من المدققين الى اعتباره خامسا للخلفاء الاربعة الراشدين تقوى وادارة وصلاحا وعدلا » . ونحن كنا مع من يعتبره كذلك فلا نستغرب منه هذا الاصلاح ونعلم عنه ما نعلم . واما الاخر فكان عمله بدافع من الانتقام والخجل وان كان فيه اصلاح وارشاد فاذا اضفنا بان زوجته هي التي طلبت الى وضاح اليمن صراحة ان يشبب بها تبين جلاء ما نذهب اليه . اما فيما سوى ذلك فقد كانت زوجة الخليفة تشفع للشاعر عنده اذا اراد به تاديبا او عقابا .

وان كنا قد فصلنا القول في تشجيع الخلفاء الامويين جملة على نشاط الغزل ونموه في اراضي الحجاز فلا يفوتنا ان نذكر امرين : اما الاول فهو ركود موجات الحروب وهذا ما قام عليه ذلك التشجيع .

واذن فنحن نستطيع ان نقرر بكل الثقة والاطمئنان بان هذا العهد الاموي كان العهد الوسط ونقطة التحول بين خشونة الجاهليين التي رفع الاسلام والعرب بها امبراطوريتهما ذات الاصقاع البعيدة الاطراف ، وبين لين العباسيين الذي قوض به الاعاجم هذه الامبراطورية فكان وكانوا السبب في تمزيقها وتمزيق مكانة العربي كل ممزق .

الشاعر

في هذه الفترة من تاريخ المجتمع العربي بعث القدر بشاعر التشبيب والغزل (عمر بن ابي ربيعة) فلاقى من حكام زمانه تشجيعا وحثا والفى لدى اهل زمانه اعجابا وترغيبا ، فاستمر به ما ذهب اليه حتى كان له شأن واي شان .

اتفق الاولون على سنة ولادة هذا الشاعر وهي السنة الثالثة والعشرون للهجرة : ذات السنة التي كان فيها مقتل عمر بن الخطاب . اما سنة وفاته فقد جرى فيها نقاش وجدول ولكن الاكثرين اكدوا على ان هذه الوفاة كانت في السنة الثالثة والتسعين . واختلفوا ايضا في سبب الوفاة فتضاربت اقوالهم فيه تضاربا شديدا . ويعنينا اكثر من التحقيق في امر سنة وفاته وسببها نشأته ثم مدى ملاءمتها مع ما اقدم عليه واشتهر به الا وهو الغزل .

فقد كان ابوه رجلا موسرا واسع الغنى كثير العبيد من الاحباش له بين قومه وعشيرته عزة ومكانة وكان اسمه قبل ان يسلم « بحيرا » بن ابي ربيعة فسماه الرسول (ص) عبد الله واستعمله على ولاية الجند وسوادها في اليمن وظل فيها حتى مقتل عمر بن الخطاب ، اما ام الشاعر فهي سبية من حضرموت او من حمير واسمها « مجد » .

وكان جد الشاعر من قبل ابيه رجلا ذا مكانة وعزة وزعامة في قومه اسمه ابو ربيعة حذيفة ابن المغيرة المخزومي ومن اكابر سادات قريش في زمنه وكانوا يدعونه بالعدل لانه كان يكسو الكعبة عاما وتكسوها قريش عاما فكان يعدلهم جميعا في ذلك . وكانت زوجته او جدة الشاعر تاجرة موسرة تستورد العطور من اليمن واسمها مخرمة او مخربة كما جاء في رواية اخرى . واذن فشاعرنا سيد ذو مكانة ممتازة في قومه يدعمها حسبه الرفيع وماله الكثير العميم ، يحف به الخدم فيكفيه كل ذلك شقاء الحياة ويجعله ناعما خاليا من هم او كدر وهو الى ذلك رائع الحسن معجب وصفه احد معاصريه من بني مخزوم فقال : « قد فرعهم طولا وجهرهم جمالا وبهرهم شارة وعارضة وبيانا .. » وكان لا يخفى عليه ما كان فيه من جمال فكان يمتدح نفسه ويفخر بجماله على طريقته الخاصة فيقول :

قالت الصغرى وقد تيمتها   قد عرفناه (وهل يخفى القمر)

فنحن نرى ان الشاعر قد وهبته الطبيعة الاسس الكاملة التي تدفعه الى معاشرة الحسان دفعا : الوراثة ، والمال والفراغ .

فأما الوراثة فقد علمنا ان امه سبية من ارجاء اليمن وقديما عرف العرب للغزل منبعا في اراضي اليمن لما كانت تنعم به من لين في العيش ورخاء من الطبيعة حتى قالوا في ذلك :(غزل يمان ودل حجازي) هذه الوراثة التي خلقت في نفس الشاعر فطرة الانوثة وجعلته اميل الى ايثار الحياة الرقيقة الناعمة منه الى تفضيل حياة الرجولة والفحولة ، وحسبنا القاء نظرة الى ابيات من الشاعر وهو يذكر

نفسه ويتغزل بها كما تشتهي كل صبية حسناء أن تذكر نفسها وتتغزل بها ليتضح امر ما ذكرنا يقول :

بينما ينعتنني ابصرنني   دون قيد السيل يعدو بي الاغر
قالت الكبرى أتعرفن الفتى   قالت الوسطى : نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها   قد عرفناه وهل يخفى القمر

وهو يحب ان يتغزل بهالجنس الاخركما تحب الناعمات المتدللات من النساء ذلك فيقول :

ابصرتها ليلة ونسوتها   يمشين بين المقام والحجر
قالت لترب لها تلاطفها   لنفسدن الطواف في عمر
قومي تصدى له ليعرفنا   ثم اغمزيه يا اخت في خفر
قالت لها غمزته فابى   ثم اسبطرت تشتد في أثرى (٣)

ولقد علمنا ان ابا الشاعر قد استعمل على ولاية الجند في اليمن وما نظن ان يخفى ما لطبيعة عيش اليمنيين من تاثير في مسلك حياة هذه الاسرة ، لاسيما أنها اقامت هناك زمنا لا يستهان به كما اشرنا الى ذلك قبل . وقد اشار الاستاذ العقاد الى ان لتجارة العطور التي اتخذتها جدة الشاعر لنفسها مهنة وللغزل نسبا قريبا بينهما وذلك لدينا مما لا شك فيه اطلاقا وما كان للشاعر ان يعرف بما عرف به لولا هذه الفطرة فنحن نعلم ان اخاه الحارث كان قد عاش فيما عاش الشاعر من ظروف لا يختلف عنه الا في ان له من نفسه دافعا الى الزهد والتقى فكان زاهدا تقيا .

واذا اضفنا الى امر هذه الوراثة وما اكتنفها من امور شجعتها ودفعت بها الى النمو دفعا امرين هامين هما المال والفراغ من مشاكل الحياة تبين لنا بجلاء مكونات شخصية الشاعر الاولى .

بهذه الشخصية وفي هذا المجتمع انطلق الشاعر عمر بن ابي ربيعة يتغنى بالنساء في الحجاز وبالنساء من غير الحجاز اللواتي يأتين في مواسم الحج ، همه من ذلك اتباع الجمال انى رآه وهو القائل :

اني امرؤ مولع بالحسن اتبعه   لا حظ لي منه الا لذة النظر

فاما الحجازيات فنعرف من اشعاره له الثريا وقد ذكرها كثيرا وقال من عاصرهبانها كانت تفوقهن جمالا وانها هي السبب في سواد ثنيته فقد زارها يوما مع صديق له فلما خرجت اليه ورات صديقه عادت واسدلت عليها سترا فقال لها : « ليس هذا ممن احتشم منه ولا اخفي عنه شيئا واستلقى فضحك ، وكان النساء اذ ذاك يتختمن في اصابعهن العشر فخرجت اليه فضربته بظاهر كفها فاصابت الخواتيم ثنيته العلويتين وكادت ان تسقطهما فعالجهما في البصرة فسكنتا واسودتا .

ومن الحجازيات كلثم التي امتنعت عليه لعلمها بقدره فما زال يسترضيها حتى التقى بها وظل عندها شهرا لا يعرف اهله اين هو ، ثم اراد الخروج فقالت له « بعد ان فضحتني ، لا والله لا تخرج الا بعد ان تتزوجني فتزوجها فكان له منها أبنه جوان وماتت عنده وهو القائل فيها :

من عاشق صب يسر الهوى   قد شفه الوجد الى كلثم
رأتك عيني فدعاني الهوى   اليك للحين ولم أعلم
قتلتنا ياحبذا أنتم   في غير ما جرم ولا مأثم

وكان يعتمر ويدخل مكة فيعرض لغير الحجازيات في موسم الحج وهو القائل :

فلم أر كالتجمير منظر ناظر   ولا كليالي الحج يفتن ذا هوى

فكان منهن اليمنيات والشاميات والعراقيات واشهر اولئك فاطمة ابنة عبد الملك التي استدعته مرة فمرة الى مضربها معصوب العينين حتى لا يعرف طريقه اليها وكانت تلومه في كل مرة على فحشه في شعره ثم ترسله . ثم كان احتال على لقائها فتبعها وهي تزمع على السفر فما انفك حتى نال منها قميصها الذي يلي جسدها وفي ذلك يقول :

ضاق الفداة بحاجتي صبري   ويئست بعد تقارب الامر

وهو في تتبعه للحسن لا يرعى حرمة ولا يسأل عن المراة من تكون او ممن تكون .

حدث قدامة بن موسى قال : « خرجت بأختي زينب الى العمرة فلما كنا بسرف ـــ على عشرة اميال من مكة ـــ لقيني عمر بن ابي ربيعة على فرس فسلم علي فقلت له : « الى اين اراك متوجها يا بن الخطاب » فقال « ذكرت لي امراة من قومي برزة الجمال فأردت الحديث معها فقلت : « هل علمت بانها اختي؟ » قال : « لا » واستحيا وثنى عنق فرسه راجعا الى مكة .

على اننا نراه في كثير من شعره لا يقنع بالنظرة كما قال عن نفسه اذ ان له شعرا فيه فحش وفيه هجر . فهو يقول :

قالت : وعيش اخي ونعمة والدي   لأنبهن الحي ان لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسمت   فعلمت ان يمينها لم تحرج
فتناولت رأسي لتعرف مسه   بمخضب الاطراف غير مشنج
فلثمت فاها آخذا بقرونها   شرب النزيف ببرد ماء الحشرج (٤)

وهو يذهب في هجره ابعد مما ذهب فيقول :

وناهدة الثديين قلت لها اتكي   على الرمل من جبانة (٥) لم توسد
فقالت على اسم الله امرك طاعة   وان كنت قد كلفت ما لم اعود
فلما دنا الاصباح قالت فضحتني   فقم غير مطرود وان شئت فازدد

بهذا ذاع صيت الشاعر وسرى حتى انه غزا به اعجاب الاتقياء ورواة الحديث في ارجاء بلاده ، فلم يبق بيت في العراق او الشام او الحجاز الا وفيه ذكر لعمر بن ابي ربيعة واشعاره واخباره .

ونحن نتساءل الان اتراه كان يتغنى بهذه الاشعار لو ان مجتمعه كان قد فرض عليه السكوت عما يبتغي ان يقول ، ام ان مدرسته الشعرية الغزلية هذه كانت تفرض الغزل

الفراشة الصفراء

●

يا حسنها فراشة … من طلنا مبلله
صفراء كبريتية … كالرغبة المهلله
رفشها الصبح بانوار السنا المشتعله
فنشرت اجنحة … بتبرها مكلله
وسحبت غلالة … معطارة مذيله
كأنها اميرة … شرقية مغلله
رأيتها في حوضنا … رفافة منتقله
قد راقها بنفسج … لحاظه مكحله
فاختلجت منهومة … ثم هوت مقبله
راشفة في رعشة … ذوب الثغور المقفله
وشاقها قرنفل … صفرته معلله
يستقطر التبر على … اجفانه المظلله
فرفرفت تؤم اهداب العبير المسبله
وهبطت تغفو على … شفاهه مؤمله
فخلتها في ذهلها … من حوضنا قرنفله

فؤاد الخشن

على المجتمع فرضا . ام ان المجتمع قد اغراه ودفع به الى الغزل فذلك امر لا جدل فيه ولا خلاف عليه ولكن ما يستحق ان يكون في امره التساؤل ما دمنا ازاء بحث في امر مجتمع وشاعر هو هل يسكت الشاعر عن الغزل اذا فرض عليه مجتمعه السكوت ام يتكلم فيتغزل محطما التقاليد فيكون ضحية مبدأ وراي : وواضح ان الشاعر لن يسكت عما تدفعه اليه فطرته التي غرست في دمائه يوم غرست فيها روحه ولكنه حينذاك سيتخذ له سبيلا اخر يتغزل فيه وقد عرض شاعرنا لهذه الحالة في قصته مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان . فقد حذره الحجاج ـ الذي كان واليا على الحجاز يومها ـ من ذكر فاطمة هده في شعره لكن فاطمة كانت تريد ان تظهر في شعر له فتشتهر فكان ان رات احد سكان مكة فقالت له بعد ان علمت إنه من مدينة الشاعر «عليك وعلى اهل بلدك لعنة الله » قال: «ولم ذاك » قالت : « حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر الاعين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره إبياتا نلهو بها في الطريق في سفرنا» فلما بلغ الشاعر النبأ قال فيها شعرا لم يذكر فيه اسمها فرقا من الحجاج وذلك في قصيدته :

راع الفؤاد تفرق الاحباب … يوم الرحيل فهاجلي اطرابي

واما ان يحطم التقاليد فيكون ضحية لمبدأ فذاك امر لا نعتقد ان الشاعر كان يقدم عليه لما عرفنا فيه من فطرة الانوثة والنعومة التي تزين له القبول بالامر الهين قبل التفكير بالامر الصعب من اجل امر يبتغيه . واذن فلا هو بمحطم للتقاليد من اجل ما يبتغي ولا هو ساكت اذا حرم عليه ما يبتغي وانما هو سالك بين الامرين سبيلا .

والاثر الذي تركه الشاعر في مجتمعه منه واضح فحسبنا بذكر هذه الحادثة دليلا على ما غرس في نفوس النساء جميعا من حب الغزل والتعلق به .

لما مات عمر بن ابي ربيعة حزنت عليه نساء مكة وكانت احداهن بالشام فبكت وجعلت تقول : من لاباطح مكة ؟ ومن يمتدح نساءها ويصف محاسنهن ؟؟ وعزاها بعضهم فقال : ان فتى من ولد عثمان بن عفان قد نشأ على طريقته وانشدها بعض شعره فتسلت وقالت هذا اجل عوض وافضل خلف فالحمد لله الذي خلف على حرمه وامته مثل هذا .

وبعد فهذا مجتمع وهذا شاعر قد تعاونا فاشتركا فقدما ديوانا من بضعة آلاف بيت فاضافا به الى الشعر العربي طرفة لم يسبقا اليها ونوادر ظلت حديث الشيخ والشاب والتقي والماجن والعجوز والصبية الى اجيال عديدة فضلا عن انهما قدما الى هذا الشعر نهجا جديدا ومدرسة اتبعها من بعدهما شعراء عديدون في القديم والحديث .

حلب

حسان الحفار



قسطنطين كفافيس

كفافيس .. الشاعر السكندري العالمي

بقلم نقولا يوسف

يرى السائر اليوم في « طريق الحرية » بالاسكندرية ــ وهو « شارع كانوب » البطلمي بالامس ــ رافدا متواضعا يخرج من ذلك النهج الكبير ، على مقربة من حي « كوم الديماس » او كوم الدكة ، يسمى « شارع ليبسيوس » .. ويتوسطه بيت قديم ذو ثلاث طبقات ، يجاور احدى المطابع ، وعليه رقم (٤) ــ وعلى بابه لوحة من الرخام كتب عليها بالعربية وباليونانية هذه العبارة :

« في هذا المنزل قضى الخمس والعشرين سنة الاخيرة من حياته : الشاعر الاسكندري ــ ق. ب. كفافيس ــ ١٨٦٣ ــ ١٩٣٣ » .

وعلى بضع خطوات من هذا المنزل ، ما زال يقوم بيتان عتيقان ، في طريق مجاور ، تشغل احدهما مدرسة للاطفال باسم « ليسيه الاسكندرية » ــ كانت تديرها الى عهد قريب الشاعرة المعاصرة « بترونده باليولوغو » ، وتعاونها الكاتبة القاصة : « ماريه روسيا » صاحبة رواية « الغريب » ، والمتوفية عام ١٩٥٨ ..

وتشغل الاخر جريدة « تشيدروموس » اليونانية اليومية ، التي تستكمل عامها الثاني والثمانين ، وتطوى في مجلداتها مئات الاقلام .. وتحرر بها اليوم الشاعرة اليزابيت بساراس ، والناقد مانولي يالوراكي ــ مؤلف كتاب عن تاريخ الاسكندرية ، وآخر عن الشاعر كفافيس ..

وعلى هذا الحي كان يتردد الادباء والفنانون المحدثون من اهل المدينة وزائريها ، كما كان يفعل قدماؤهم منذ ثلاثة وعشرين قرنا ، يوم كانوا يتمشون في امسيات الصيف بين شارعي سوما وكانوب ، وبين الاكاديمية وقبر الاسكندر ..

ولقد مر على مولد الشاعر قسطنطين كفافيس مائة عام ، وعلى وفاته ثلاثون .. فانه ولد بالاسكندرية في ١٧ من ابريل (نيسان) عام ١٨٦٣ (١) وتوفي بها في ٢٩ من ابريل ١٩٣٣ ، ولم يزل قبره في مدافن « الشاطبي » هناك .. ولهذا احتفل بعض الاوساط الادبية في مسقط راسه وفي الخارج ، بهذه الذكرى المئوية والثلاثينية معا .. واقيم لذلك بأثينا معرض لاثاره ومخطوطاته ، وما قيل فيه .. وان كان قد سلف تكريمه من قبل بطبع مجموعة من شعره في لغته الاصلية (اليونانية) ، وبترجمة هذا الشعر الى بضع لغات .. وايضا بما وضع عن حياته وشعره من كتب ومقالات ..

وكان القصاص الانجليزي الكبير ا. م. فورستر قد كتب عن صديقه كفافيس في حياته ، وترجم بعض قصائده الى الانجليزية ، فلفت انتظار قرائها اليه ، وذلك عقب زيارته للشاعر بالاسكندرية يومذاك .. فلما توفي الشاعر عام ١٩٣٣ قامت « الجمعية الادبية اليونانية » بالاسكندرية ، بجمع اشعاره ، وطبعتها عام ١٩٣٥ في مجموعة انيقة ، تتضمن مئة وتسعين قصيدة ومقطوعة في مائتي صفحة ، وفي المطبعة المجاورة لمنزل الشاعر . (٢)

وفي هذا المعرض الحافل يطالعك شكول من اللوحات ــ الرمزية والوصفية ، والاسطورية والسكندرية .. والسافرة والمتألمة ، والمتفائلة والمتشائمة ــ وتصادفك هذه العناوين : الرغبات ، المدينة ، النوافذ ، العجوز ، الشموع ، الجدران ، داريوس ، ترموبيليس ، انتظار البرابرة ، هيرودس اتيكوس ، الوتيرة ، اتاكا ، ملوك سكندريون ، موكب ديونيسوس ، الدرج الاول ، سنة ٢٠٠ ق.م. ، الخ ..

---

(١) جاء في اول ديوان كفافيس الذي ترجمه بابوتساكيس الى الفرنسية (١٩٥٨) ان الشاعر ولد في ٢٩ ابريل ١٨٦٣ . (٢) مطبعة تختي بشارع ليبسيوس بالاسكندرية ــ (ويكتب اسم الشاعر باليونانية « كفافيس » وبالفرنسية والانجليزية : « كفافي ») . (٣) « المجلة » بالقاهرة عدد نوفمبر ١٩٦٢ ــ وعدد فبراير ١٩٦٣ . (٤) انظر جريدة « المساء » بالقاهرة اول مايو ١٩٦٣ في ذكراه الثلاثينية ــ لكاتب هذا المقال .. وعباس العقاد ــ جريدة « الاخبار » ١٠ ــ ٤ و ٢٤ ــ ٤ ــ ١٩٦٣ ــ تعليقات . (٥) بابوتساكيس ــ ترجمة ديوان كفافيس الفرنسية ص ٥٥ قصيدة ٢٣ ــ وترجمة لورانس داريل في « جستين » ص ٢٥٥ ــ وترجمها علي نور ــ (المجلة ــ فبراير ١٩٦٣) . (٦) بابوتساكيس ص ٣٧ . (٧) ديوان كفافيس ــ اليوناني والفرنسي . (٨) من مقالة للشاعرة بجريدة « تشيدروموس » عدد ١٢ ــ ٥ ــ ١٩٦٣ . (٩) مقالة لاكسنوبولو بجريدة « تشيدروموس » عام ١٩٣٣ . (١٠) مقدمة الطبعة الفرنسية لديوان كفافي ــ ترجمة بابوتساكيس ١٩٥٨ .

وفي عام ١٩٥٧ طبع ديوانه مترجما الى الايطالية ، وكتب عنه اوجين مونتالي وغيره – لقراء هذه اللغة ..

ثم ترجم جورج بابوتساكيس مجموعة من شعر كفافيس الى الفرنسية ، تتضمن ١٥٤ قصيدة ومقطوعة ، وطبعها بباريس عام ١٩٥٨ مع بعض تعليقات وشروح ، وقدمها الكاتب الفرنسي اندريه ميرابل ..

وكان الاديب « مفروكرداتس » قد ترجم هذا الديوان الى الانجليزية ، ثم ظهرت في لندن ترجمة انجليزية اخرى اكثر شمولا عام ١٩٦١ ، قدمها الشاعر المعاصر اودن ، وصرح بتأثره بكفافيس ..

واليوم ينهض الاديب السكندري « علي نور » بترجمة كفافيس من اليونانية الى العربية ، ونشر بعض قصائده في سياق مقالتين عن الشاعر .. (٣)

ولم تشمل تلك المجموعات السالفة الذكر – على مختلف لغاتها – كل ما نظم الشاعر في حياته – في فترة تنيف على الخمسين عاما – فهو قد نبذ في شيخوخته ما نظم في صباه وصدرشبابه ، وكثيرا ما كان يكتفي باهداء بعض قصائده الى اصحابه على قصاصات من الورق ، وينشر البعض الاخر في الصحف والمجلات .. ولم تجمع كلها بعد ..

وكانت شهرة كفافيس محصورة الى ما قبل وفاته بين قراء الصحف المحلية ، وبين اصحابه واهل بلده .. ثم تخطى صيته ما وراء البحر بعد ترجمة ديوانه الى تلك اللغات ..

***

واما ما كتب عنه ، وبخاصة بعد وفاته، فشيء كثير .. ومن ذلك كتيب نشره بالاسكندرية الناقد تيموس مالانوس – عام ١٩٣٥ – بعنوان : « كفافيس واليوت » وازن فيه بين الشاعرين الكبيرين في رمزياتهما ومبتكراتهما وفنهما عامة ..

وكتيب آخر جمع فيه جورج ليخونيدس بعض ما كتب النقاد عن الشاعر وطبعه بالاسكندرية عام ١٩٤٢ .

وعاد مالانوس فنشر عام ١٩٤٣ كتابا كبيرا في جزئين سماه : « الشاعر كفافيس ، حياته وآثاره » – استعرض فيه الكثير مما عرف عن الشاعر ، ومجد فيه ..

كما طبع ستراتي تسيركا – من كبار كتاب اثينا – عام ١٩٥٨ كتابا في خمسمائة صفحة عن : « كفافيس وعصره » .. تحدث فيه عن بيئة الشاعر السكندرية في عهده ، وعن جاليتها اليونانية ، وعن نشأة الشاعر وحياته وفنه ، وزين كتابه ببعض الصور التذكارية . وكان المؤلف قد زار كفافيس بالاسكندرية عام ١٩٣٠ وعرفه وحادثه ..

ثم نشر الكاتب مانولي يالوراكي عام ١٩٥٩ رسالة عن كفافيس بناها على حديث بينه وبين الناقد مالانوس ..

هذا الى رسالة طبعها الاديب والمحامي السكندري : ميشيل بتروس – صاحب عدد من المؤلفات النقدية – بعنوان : « حياة الشاعر السكندري كفافيس » (١٩٤٨) .. واخرى للكاتب الاثيني بيرانثي عن «كفافيس الخاطىء ! » .. ومقالات للادباء فيليب شيرارد ، وبنايوتوبلو ،ونونوس . واخرى في الصحف العربية لعباس محمود العقاد ، وامينة السعيد ، وعلي نور ، وكاتب هذه السطور (٤) .. وغيرهم ..

وهناك كتب اخرى سوف تخرجها المطابع لمناسبة تلك الذكرى المئوية لمولده ..

***

ولم يكن كفافي بالشاعر المتفرد بمثل هذه الطاقة الشعرية الزاخرة بين شعراء الاسكندرية – المشتهرة طوال عصورها الاغريقية والرومانية والعربية ، بشعرائها ومدارسها الفكرية .. وان كان اكثر المحدثين شهرة بحيث قفز اسمه الى النطاق العالمي ، وترجم شعره الى لغات الغرب ، والف عنه وما زال يؤلف الكثير من الكتب .. وقد يرجع ذلك – مع موهبته الشعرية الاصيلة – الى اقدميته النسبية – بينهم – في العمر والانتاج ، والى ما حاكه الرواة حول حياته من طرائف وغموض وشذوذ ، وهو الشيخ الشاعر العزب ، الذي يعيش وحده في صومعة على ضوء الشمعة .. فلم يسلم من السنة الفضلاء ولا من رجمهم اياه بالاحجار !. فاتاحت تلك الالسنة لفضائله المطوية ان تنشر ، واذا بقرائه امام فنان عبقري، وعملاق عالمي ، تتبدد الصغائر التي تحاك حوله كما تتبدد الرمال والاصداف بعد صيد اللآلىء !..

وهكذا سطع كفافيس على شاطىء الاسكندرية في هذا العصر ، مثلما سطعت منارة فاروس في القديم ، وشمخ بين جماعات الشعراء السكندريين اليونانيين : (بريسيمزاكيس ، ، وغلافكوس اليثرسيس ، ونيقوس ، نقولائيدس ، وقسطنطين قسطنطينيدس ، ونقولا فيلاس ، ومارينو سينوروس ، والوى تروفير او جان خريستوذولو ...) .

وكما شمخ جوزيف اونجريتي (المولود في حي محرم بلو عام ١٨٨٨) بين الشعراء الايطاليين ، وما زال يعيش في روما ساطع النجم ..

وكماشمخ عبد الرحمن شكري بين جماعة « شعراء الشلالات » السكندريين ، في الربع الاول من القرن العشرين ..

ومثلما كان كاليماخوس شيخ « رابطة شعراء بليئاد » ، في القرن الثالث قبل الميلاد ..

***

وكما لفظ النقاد في سيرة كفافيس ، فكذلك اختلفت موازينهم في تقييم شعره – منهم من تسقط له الهفوات، ومنهم من سما بشعره الى المستوى العالمي المغفورة له التافهات ..

فأما قصة حياته فيمكن اجمالها من الرواة الثقات فيما هو آت :

ولد الشاعر (قسطنطين بترو كفافيس) بمدينة الاسكندرية يوم ١٧ من ابريل ١٨٦٣ ، ثم توفي بها – كما سلف – في ٢٩ من ابريل ١٩٣٣ ، شيخا في السبعين . فكان سكندري المولد والنشأة والطابع ، يوناني الابوين ، عالمي الفكر .. وكان قد قضى بعض سني شبابه في القسطنطينية وانجلتره واثينا ، فها هنا ولد وتربى ، وشب وشاب .. وارتزق من الوظائف .. ونظم الشعر.. وهنا مسرح صباه ، ومأوى شيخوخته ، ومثواه الاخير ..

كان يحب مصر كلها ، كما كان يحب الاسكندرية .. وله قصيدة سماها : « مصر الحلوة » ، وقصائد كثيرة مستلهمة من الاسكندرية القديمة والحديثة .. ولو كان انساني العاطفة ، عالمي الفكر .. وكان لا يرى من ذلك الغزو الانجليزي ، وقذف مدينته بالقنابل ، الا ضربا من البربرية – تماما كما وقع يوم غزتها امبراطورية الرومان ، في سالف الزمان ..

وكان ابوه « بترو كفافيس » تاجرا ميسورا ، استوطن الاسكندرية عام ١٨٤٥ ، ثم تزوج من احدى بنات القسطنطينية – حسناء اغريقية تدعى خاريكليا – وانجب منها تسعة اطفال ، اصغرهم شاعرنا هذا ، فكان موضعا لتدليل امه وحبها ، بقدر تعلقه بها طيلة حياته .. ثم توفي الاب عام ١٨٧٠ بعد ان تدهورت حالته المالية ، وترك الارملة الشابة لترعى اولادها ، وشاعرنا طفل في السابعة .. فاضطرت الام الى الانتقال بأطفالها الى حيث يعيش بانجلترة ، شقيق زوجها ، تاجر المنسوجات .. وحتى تصفي معه شركة زوجها وميراث ابنائها .. وهناك فيما بين ليفربول ولندن ، اتقن الشاعر الصبي – قسطنطين – اللغة الانجليزية على اساتذة بالمنزل ، وقرأ الكثير من ادبها وما ترجم اليها من آداب الامم ، حتى عاد مع امه الى مسقط رأسه عام ١٨٧٩ وكان قد بلغ السادسة عشرة ..

وهنا التحق بالمدرسة التجارية بالاسكندرية ، وبهرته بها محاضرات ناظرها الاستاذ في التاريخ والفلسفة ، مما زاده شغفا بكتب التاريخ ، ووجد في احداثها واساطيرها مرتعا لخياله ، ومستلهما لاشعاره .. ولطالما تمنى لو اصبح مؤرخا يجول في التاريخ ويصول .. وعاد الشاعر الناشىء يعيش في كنف البحر ، ويطوف بطرقات المدينة العجوز ، باحثا حوله عن عصرها الذهبي وماضيها السحيق .. ولم يدر ان جوها الساكن وبحرها الغامض ينذران باقتراب العاصفة الهوجاء ، والحريق المدمر ، والغزو الغادر .. وها هي الام الارمل تعود عام ١٨٨١ فتحمل اولادها عبر البحر الى بيت ابيها في استنبول ، وكانت لم تره ولم يرها منذ سنين ..

ويجد شاعرنا الصغير نفسه في عاصمة البيزنطيين القديمة ، ويعود التاريخ ليعبث بخياله .. وهو هناك في رعاية جده السري لا عمل له غير الطواف بدور الكتب ، واماكن الاثار ، ومواطن الاساطير.. وغير مراسلة اصحابه بالاسكندرية ، فاذا تركته احلامه ، جرفته المدينة الكبرى الى ملاهيها وبؤرها ، وحماماتها التركية .. وينساق فتى العشرين في اللهو والعبث ، وتخشى الام على ولدها الحبيب ، وتعود الى بيتها بالاسكندرية عام ١٨٨٥ ، وتظل على رعايتها له حتى وفاتها عام ١٨٨٩ – في الخامسة والستين من عمرها ..

وها هوذا الشاعر قد عاد الى مسقط راسه شابا في الثانية والعشرين ، وعليه ان يجد عملا يرتزق منه ، فيشتغل مترجما عن الانكليزية واليها في « تفتيش الري قسم ثالث » بمرتب سبعة جنيهات في الشهر .. ويظل يتقلب في الوظائف الادارية ببعض المصالح والمؤسسات ، حتى اذا كان شهر ابريل ١٩٢٢ وقد اشرف على سن المعاش ، وضعف بصره ، اعتزل الوظائف وعاش بقية حياته معتكفا في تلك الشقة بشارع بسيوس ، ينظم الشعر احيانا ويقرأ الكتب والصحف احيانا اخرى . وقد عرفه اصحابه وقراوه شاعرا كبيرا فزاروه في بيته ، وسجلوا حركاته ، وتحدثوا عن طباعه وطرائفه ما شاء لهم الحديث .

كان يشعر انه في هذه المدينة العظمى اشبه بالطائر الحبيس في القفص .. فهو اسير الحاجة ، اسير الفجر ، اسير الرغبات الجسدية والندم .. اسير الزمن الذي يسير به الى النهاية .. والمدينة ايضا اسيرة طغاتها وملاكها وغزاتها الذين ربطوها في عجلتهم – المدينة التي صور عفتها يومذاك لورانس داريل في «رباعية الاسكندرية» وختم جزءها الاول « جستين » بقصيدة شاعر المدينة – العجوز » – كفافيس – عن « المدينة » ، حيث يقول : (٥)

« تقول لنفسك : سوف اذهب الى ارض اخرى
الى بحر اخر .. الى مدينة اجمل من هذي بكثير
– قد توجد او يرجى ان تكون ..
فيها هنا كل خطوة تزيد العقدة احكاما ..
والقلب مدفون في جسد ، ومستهلك ..
– الى متى على ان اظل ها هنا ؟
محصورا في هذا الجوار الموحش لعقل عاد ..
واينما تطلعت حولي ،تبدت لعيني اطلال حياتي السود ..
وكنت هنا سنوات طوال –
اسرف وابدد – ولا جدوى ..
– ما من ارض جديدة يا صديقي .. ما من بحر جديد
فالمدينة سوف تتبعك ! ..
ولسوف تطوف دون غاية بالشوارع ذاتها ..
وفي الاحياء المعنوية نفسها ، تنحدر من الشباب ، الى الشيخوخة ..
وفي البيت نفسه تشيب في النهاية .. فالمدينة قفص !

وليس ثمة مكان آخر ! ..
فهذا على الدوام مهبطك الارضي ..
وما من فلك هناك يخلصك من ذاتك .
آه .. الا ترى ؟
انك ما دمت قد حطمت حياتك في هذه البقعة من الارض :
فقد حطمتها بالمثل في كل مكان على الارض قاطبة ! »

كما يقول من قصيدته : « النوافذ » (٦)

في تلك الحجرات المظلمة ..
حيث اقضي اياما تجثم على صدري ..
اروح واغدو هائما
واجد في رواحي وغدوي :
عزاء وسلوى لنفسي ..
ولكني لا اجد نوافذ حولي ..
او اني انا الذي لا استطيع ان اعثر عليها ! »

***

وفي عام ١٩٣٢ – قبيل وفاته – ذهب كفافي الى اثينا ليعالج السرطان الذي دب في رقبته بعملية جراحية .. وكان قد زارها مرة عام ١٩٠١ للفرجة .. فهرع اليه شاعرها « صقليانوس » حاملا طاقة من الزهر ، يتبعه موكب من شعراء الشباب يهدون اليه اشعارهم ، وهو لا يستطيع النطق .. ثم عاد الى مستشفى الاسكندرية ليقضي بها نحبه – مساء ٢٩ من ابريل ١٩٣٣ – وليدفن في مقابر الشاطيء هناك – شيخا فقيرا محطما ..

وما ان غاب الشاعر عن الانظار ، حتى بدأ النقاد عملهم .. فأقام اصدقاؤه عقب وفاته حفلا تذكاريا بالنادي اليوناني بالاسكندرية ، القوا فيه خطبا كثيرة .. ونشر الاديب « ستافرو فرينوس » عددا خاصا من مجلته الفرنسية « الاسبوعية المصرية » عن كفافي ، مع ترجمات لبعض قصائده الى الفرنسية ..

واعقب نشر ديوانه بالايطالية عام ١٩٥٧ ، مقالة كتبها الاديب الايطالي « اوجين مونتالي » جاء فيها ما يلي من الذكريات :

«كان لكفافي صوت جميل في الغناء والحديث ... وكانت امه المرأة الوحيدة التي احب بين النساء .. وكان يحتفظ في بيته بشارع « ليبسيوس » ببعض الاثاث الثقيل من الخشب المشغول العرب الطراز ، وببعض التذكارات العائلية ثقل بها حاملا لديه .. وكان يحب الضوء الخافت – ضوء شمعة او مصباح بترول ، ولم يستخدم الكهرباء .. فاذا زاره ضيف يحبه ، اضاء له شمعة ثانية والا فشمعة واحدة . فاذا ضاق بالضيف ، اطفأ الشمعة ! وكان نحيف الجسم ، متوسط القامة ، ضعيف البصر ، انيق الملبس ، شديد الاهتمام بتاريخ الاسكندرية القديم وتاريخ بيزنطة ، ويحب ان يقص بعض الوقائع التاريخية التي لا يهتم بذكرها في شعره . فموضوعاته ذاتية تخصه وحده ، وشخصياته خيالية ينفرد بها شعره . ولو انه يبث في تلك الشخصيات القديمة حياة – فتعيش معنا اليوم ، وتدع القارىء مأخوذا .. »

وفي شعر كفافي ، وفي ذكريات « مونتالي » وغيره من النقاد ، نلاحظ اثر الشموع في خيال هذا الشاعر ، فهو كما رأينا لايستعين بغير الشمعة ، يضيء بها بيته ، وينظم على نورها شعره ، ويستقبل بها ضيفه .. وهو في قصيدته المسماة : « شموع » (٧) يشبه ايامه الراهنة والمقبلة ، بشموع مشتعلة – حارة ذائبة .. ويمثل ايامه الماضية بصف من الشموع المطفأة – تتزايد عددا يوما بعد يوم .. وهو يعلم ان ما من شموع مضيئة – مهما كان عددها – سوف تخبو جميعا من يوم قريب ، وتعود الى الوراء – الى الفناء .. وكأنما كانت قصيدته لوعة الم ، لفظها في سرعة قبل انتأتي الشهقة فتطفىء حياته.

وفي قصيدته : « من الساعة التاسعة » – ترى الشاعر وقد اشعل مصباح النفط ، وجلس في سكون الليل ، لا يعمل شيئا .. وان كان قد راح يفكر ويحلم ويتأمل ... وفي رأسه تمر حياته الماضية في موكب دون ان يشعر ، فقد غاب عن نفسه .. وبغتة يتطلع الى ساعته فاذا بها وقد تجاوزت الثانية عشرة .. يعجب كيف مرت عليه تلك الساعات ولم يحس بمرها .. غير ان عجبا اخر يتملكه حين يذكر كيف مرت عليه كل تلك السنين من عمره الطويل – وقد ذهبت سدى – من لا شيء ! .. وكان شقاؤه في شعوره بانه عاش طويلا دون ان يعمل شيئا يرضيه ، او يحقق بعضا من امانيه !

***

وكما رأيناه في قصيدة « المدينة » ينعي على الاشقياء وهمهم بانهم سيتغيرون اذا ما ارتحلوا عن مدينتهم الى مكان اخر احسن ، بينما هي تتبعهم اينما ذهبوا . فما داموا قد حطموا حياتهم وافسدوها هنا فلسوف يضيعونها في كل مكان على الارض – فانه في قصيدته الرمزية : « اسوار المدينة » يرى ان القليلين هم القادرون على انقاذ انفسهم من تلك الاسوار .. فهم لا يلتفتون الى الاسوار التي تبنى حولهم عالية – يشيدها لهم اناس اخرون انانيون ، لا يفكرون في العطف على اخوتهم الضعفاء ويرى هؤلاء انفسهم محاصرين منعزلين في الدنيا عن غيرهم . وكانوا يستطيعون ان يؤدوا الكثير في دنياهم . ولكنهم عاجزون عن تحطيم تلك الاسوار – ينوؤن تحت اثقال الحياة ومطالب العيش التي اخذوا على عاتقهم حملها

وهناك التعساء طيلة حياتهم – لانهم قالوا : « لا » مرة واحدة في عمرهم . وكانت هذه « اللا » هي الكلمة الحقة التي كان يجب ان يقولوها . والا فقد خرجوا على ضميرهم وعلى العدل والحق – ومع ذلك يندمون لانهم

قالوا : « لا » بعد ان اسكتوا هذا الصوت .

ولكل امرىء في حياته هدف ـ يكافح من اجل الوصول اليه . ويظن اذا بلغه كان سعيدا .. فاذا مـا ادرك تلك الغاية ، وجدها لا تستحق كل هذا العناء . اذ ان قيمة هذا الهدف الوحيدة ، هي في الكفاح من اجل بلوغه .. وما اشبه هذا الكفاح برحلة « اوديسيوس » ومخاطراته ـ وكان هدفه بلدته «ايتاكا» . وما كانت ايتاكا هــذه ـ وهي الجزيرة الصغيرة التي لا تفرق عن غيرها من البلاد لتستحق كل هذا العناء والجهاد .. والخير ان تطول الرحلة في جهاد وكفاح ، من ان تنتهي سريعا ببلوغ مثل ذلك الهدف ـ ذلك اللاشيء !

***

وتقص الشاعرة اليونانية « ميرتي تيوتيسا » ذكرياتها عن الشيخ الشاعر « كفافي » بعد ان زارته في بيتــه بالاسكندرية في صحبة صديق (٨) ـ وتقول انها حيــن قدمت الى هذه المدينة يومذاك ، رآها تشبه سيدة ترتدي بملابس ذات الوان صارخة ،وتتكلم بصوت مرتفع ! وكانت قبل حضورهااليها اوصاها آلشاعر « لمبروس‌بورفيراس» بان تزور كفافيس فهو جدير بان يسافر المرء اليه .. فلما وصلت الى هناك وسألت عن داره ، قيل لها انه لا يحب التعرف بالناس .. ولكنها ذهبت اليه وادخلت الــــى صالونه الشحيح الضوء . ورآها الشاعر لا تتكلم كثيرا فاعجبه ذلك ورحب بها ، ونادى خادمه احمد ليحضر لها شرابا .. ولما اعتادت عيناها ظلام الغرفة ، راحت تتأمله ووجدته نحيفا شاحب اللون ، غزير الشعر . ولكن اعجب ما فيه كانت مفنطيسية عينيه الواسعتين .. ـ « عينين فيهما اسرار القديم ، وليستا من عصرنا بل من اعمـاق السنين ..وصوته ايضاكما خيل الي ـ كان آتيا من بعيد»

كان جالسـا في ركن مظلم يتكلم عن الفن ، فيبدو كمـا لو كان يعيش في غير جونا ، وجاء الينا من بعيد .. ولا عجب اذا وجدته وقد اختفى من امامك ـ بعــــد ان سحـرك كـلامه !

وقد يعيد على‌مسامعك‌اشياء‌معروفة‌لديك، فتبدوجديدة

وكل ما في بيته من آنية وطرف وتماثيل قديمة ، عليه طابعه الخاص ، وفيه من فنه وذوقه ما يختص بكفافي وحـده غيـر مقلد ..

وتروي الشاعرة ايضا : انه لما عرف بقدومها من اثينا ، راح يحدثها عن الشعراء هناك .. وكان يبدي تبجيــلا للشاعر « بالاماس » ،وتقديرا للكاتب « اكسنوبولو » ـ الذي قابله مرة ـ ، واهتماما بالشاعر « بوفيراس » ـ متحدثا بحساب ، ووازنا كلماته في دقة ، حتى لا يجرح شعور محدثه اذا خالفه في الراي ، وقد تحس في حديثه احيانا بسخرية ـ تارة رقيقة وتارة لاذعة ـ ومع ذلـك فليست بالسخرية القاسية ..

وحدثها الشاعر انه يعيش معتكفا مع كتبه ، ولكنه لم يزهد في الدنيا بعد .. وانه حين يرخي الظلام سدوله ، يزيده الليل وحشة وتفردا ، فيحب ان يقرع الصديـق بابه ، وان هذا ضعف فيه يود ان يتخلص منه .

ولما ودعته الشاعرة وهبطت الدرج الرخامي ، قالت لزميلها الصحفي بارغاس الذي صحبها اليه ، انها غير متأكدة من انها راته ، ويخيل اليها ان ذلك كان حلما . فصوته وشكله ولقاؤه كانت كلها شبيهة بالحلم ، ولعلها لا ترى هذا الحلم ثانية .

وختمت الشاعرة حديثها هذا بقولها : انها لما عــادت الى فندقها كانت تطالعها صورته ، وفي وحدتها راحت تقول لنفسها : اننا نعلم كم في الحياة من شر ، ولكنــه عرف الا يراها كلها شرا . وعرف كيف يتطلع حوله وحول الحب .. وكان احيانا يرى‌كل شيء رديئا فينكمش ،ولكن كبرياءه هوالحارس لحياته ،وجعل فنه حياته .. ثم قالت:

« ومنذ حين اثاروا ضجة حول الرجل الصامت ، وتكلم عنه البعض بالسوء . وكانت تلك رداءة ـ ولكني لــم اشأ ان اسأل عن الشاتمين ، بل ظلت صورته كما رأيتها امامي : عيناه المفنطيسيتان القادمتان من الايام البعيدة ـ وفي الضوء الخافت للمصباح المعلق امامي ، كان التعب النفسي يرتسم على وجهه .. ومعذلك كان يسأل ويجيب من معه .. وانتم ماذا ترون ايها النقاد الاعزاء : مالانوس ، واليثوسيس ، ولاغوذاكـــي ؟ فالوقــت قـــد تأخـر ، واصحـابــه تركـــــوه وحــــده ومضـــوا ! ... وعيناه بداتا تسطعان في وحدته وقد نسي كل شيء .. وان كان ما نسبوه اليه يضايقه ـ وان شيئا مــن رداءة الدنيا دخلت منزله وله ان ينساه .. وها هوذا ملقـــى على كنبته الواطئة يقرأ في تاريخ العصور .. ومن زجاج النافذة كان ضوء القمر ، وهو الضوء الوحيد الذي يدعه الشاعر يزوره . وان كان ضوء الشمعة يحوطه احيانـا بالسكون والغموض ـ اما خيال الحب فلا يغيب عنه ابدا »

***

وكان الكاتب الانجليزي فورستر قد صور كفافي مــن قبل وهو يذرع شوارع الاسكندرية بخطاه الوئيدة ، ثــم وهو يمازح صحابه فلا يوقفونه لانه يفكر في قصيدة .. فلطالما راوه يقف على الطوار ويحدق في شيء لا يــراه غيره ـ وعيناه من وراء منظاره تريان ما لايـــرون ... وقد يمر بالدكاكين متطلعا الى الناس ، متخيلا حيـاتهم واجدا المدينة كما كانت لم تتغير .

ولكنها لم تكن الاسكندرية التي طاف بشوارعها قرينة شيخ شعرائها كاليماخوس ـ راس مدرسة « الابيجرامة» في عصرها « الهيلينستي » ـ ولو ان الناس هم الناس .. فهو يجد ذاته في سجن من حوله الاسوار ، وفــي غرفة بلا نوافذ ، وهو لا يستطيع الفرار لان الخطيئـــة

العالقة بنفسه سوف تتبعه في كل مكان .. وهو كلما نوى الوقوف في وجه التجارب والمغريات ، واقسم الا ان يغير حياته ، لا يلبث ان يعود الى سيرته الاولى ..

ويشده الليل اليه ، ويشرع في نظم شعره الذي عاشه .. ويتراقص لهو شبابه امام عينيه الكليلتين ، فيستوحيه شعره .. ويحيل احلامه واخيلته الى حقائق ... ويسخر من نفسه ، ومن الناس ، ومن الحياة كلها ــ سخرية هينة لينة باسمة ــ محصورة في اللفظ والعبارة ، لا في شخص معين ولا في حادث بالذات .. ويسخر من نفاق الناس، وريائهم ، وفضائلهم المصطنعة ، ومن التقاليد المموهة التي يأبون الا ان يجعلوامنها اسوارا عالية حول انفسهم .

ويتلقف النقاد شعره ، ويضعونه في الميزان ، ويفضي كل منهم برأي : فاما الكاتب « اكسنوبولو » فيقول (٩) : « ان الشعر بل والفلسفة ينبع كلاهما من الالم . واننا اذا عددنا كفافيس شاعرا ، فذلك لان شعره يصور آلام النفس البشرية .. والكثير من شعره لا يهزنا فقط بل يمزقنا . فهو من هذه الناحية ، اكبر من نظم باليونانية عن الالم والعذاب .. ولكن هناك من لا يحب الكتابة عن كفافي لما ينسبون اليه من شعر « غير خلقي » . فاذا استثنوا هذا النوع من الشعر ، رفعوه الى القمم .. ومع ذلك فان هذا القليل من شعره « غير الخلقي » يعد شعرا فنيا بليغا يخفي في طياته الحسرة والالم .. وعبقرية هذا الشاعر صادرة عن انسانيته وعن الام الانسانية .. »

واما « اندريه ميرابل » فيرى (١٠) « ان الجمال عند كفافي شعور مطلق ، يتناقض مع الشعور النفسي الذي ينبعث من الحق والخير ــ وهذان اذا طلبهما الانسان لذاتهما على انهما غاية كبرى ، فمن المحتمل جدا ان يؤثرا في فكرة الجمال نفسها ، فيتزعزع عندئذ صرح القيم الاخرى التي يتألف منها العالم العلوي الذي يصدر عنه الشعر . لهذا كان الجمال عند كفافي هو القيمة الرئيسية التي تصبح بعدها جميع القيم الاخرى ، قيما ثانوية .. وهناك من الشعراء من يعتقد ان الجمال والخير مرتبطان فالشاعر كالفوس مثلا ، لا يستطيع ان يتصور الجمال مجردا عن الخير ، ويرى ان الجمال والخير يؤلفان جانبين من مطلق واحد . وكذلك يرى بالاماس .. »

وكأن ميرابل يعتبر كفافي ــ الي حد ما ــ من مدرسة والتر باتر ، واوسكار وايلد واضرابهما ، التي تقول بنظرية الجمال للجمال ، والفن للفن، بصرف النظر عن قيمة الخير الاجتماعي ، وقيمة الحقيقة التجريدية ــاو المصطلح عليها .. لان الافكار التي تدور حول الخير والحقيقة هي افكار قدتتغير بتغير الازمنة والبيئات وعقول المفكرين الذين ينادون بها ، اما الجمال فخالد ابدي ..

وكانت نظرية اقتران الجمال بالخير والسمو النفساني قد نادى بها رسكن ، وعالجها افلاطون من قبل ومع هذا فهناك من النقاد من لا يرى تطبيق النظريات الفلسفية ، والطقوس الاجتماعية ، على فئة « الشعراء » العائشين كالطيور في الترنيم والتسبيح للجمال وخالق الجمال . وكأزهارالمروج تنشر العبير، وتنظم الالوان،وترقرق القلوب.

واما الذين اهتموا باللفظ والنظم والقوافي ، فقد تناقشوا في ذلك ايضا ، فقال « مالانوس » : ان شعر كفافي ، وان لم يستوف عنصر العذوبة البلاغية ، والاسلوب الغنائي المعهود ، وهو وان اتصف بالبساطة ، والتجرد من كل زخرف لغوي ، فانه مع ذلك لا يعدم ان يهز شاعرية كل انسان . وانه لباق في الادب موضعا للجدل والنقاش .. وفيه من الابتكار ما لا نعرف قيمته

ويدافع « اكسنوبولو » عن شعر كفافي بقوله :

« .. هناك من يقول ان بعض شعره اقرب الى الموضوعات النثرية ، كما في قصائده التاريخية ، او ما يناقش فيها مسائل تاريخية ، ومع ذلك فمثل تلك القصائد ذات اثر فني بليغ .. وهناك نقاد يذهبون بان كفافي لم يكن قديرا في النظم وارساء القوافي ، ومن هؤلاء مالانوس في كتابه النقدي الذي يرى فيه ان نظم كفافي بسيط وقليل التنوع .. ومن قائل ان لغته ليست قوية .. والحقيقة ان شعر كفافي لم يكن موسيقيا فحسب ، بل هو كثير المرونة . وهو في بعض قصائده يلعب بالنظم حتى ان الشعراء المغرمين بهذه الدقائق يحسدونه على ذلك .. ولم يكن خبيرا بالنظم فحسب ، بل كان يتعمد اجادة النظم والوزن وان كان احيانا لا يعنى بتجويد ما لا يحتاج الى كثير من العناء .. واما لغته البسيطة القريبة من الدارجة وليست بالعامية ، فتتضمن كل ثراء عبقريته .. وصحيح انه لم يفن اللغة بالالفاظ وان نظمه بالنسبة الى بعض كبار الشعراء ينقصه بقدر ما كان يبالي المشاعر وقوة الشعور .. ويقارنونه بالشاعر بالاماس الذي اثرى اللغة اليونانية . ولكن لكل منهما نواحي من العظمة وهما اكبرشاعرين يونانيين من المحدثين»

ولم ينظم كفافي في غير اليونانية التي تتوسط بين الفصحى والعامية ــ لغة عصره ــ ولم ينظم بالانجليزية التي كان يعاون بها مجلة يونانية سكندرية اصدرها بعض الادباء باسم : « الفن السكندري » وقيل انه كان يساعدها بالمال ايضا .. ولم يكن مهتما بالشهرة ــ التي جاءته بعد موته ــ فلم ينشر في الصحف والمجلات غير القليل من شعره ، ولم يزل اصحابه القليلون الذين احبوه، يحتفظون بتلك القصاصات التي كتب عليها قصائده ..

وانطفأت الشمعة منذ ثلاثين عاما ــ او هكذا كان يظن ــ فما حدث ان ضوءها المنزوي في الغرفة المغلقة ، تحول الى شعلة تنير ظلمات الطريق في مسارب النفس البشرية التي لم نصل الى فهمها بعد ..

رمل الاسكندرية **نقولا يوسف**



حبيب الخوري

حبيب الخوري استاذ الجيل في فلسطين

بقلم البدوي الملثم

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بزغ فجر النهضة الادبية في فلسطين وقامت هذه النهضة في اول مراحلها على اللغوي الشهير المرحوم نخلة زريق (١) وفي المرحلة الثانية قامت هذه النهضة على استاذ الجيل في فلسطين حبيب الخوري .

عرفت « حبيبا » حركة دؤوبة في حقل التربية والتعليم في فلسطين ، وعرفته لولبا فعالا في (الكلية العربية) التي سطا عليها العلج الصهيوني بعد النكبة ، فشوه مرابعها وشرد سمارها ، ففدت « كباقي الوشم فيظاهر اليد ! » .

وعرفته (الصمام الاول) في (مجلة الكلية العربية) التي امضى في ادارتها وتحريرها والكتابة فيها ستة عشر عاما ، وعرفته (قاموسا متحركا) يرد الكلمات الى اعمدتها واصولها اللغوية الفصيحة وجبارا من جبابرة اللغة العاملين على رفعة شأنها وتخليدها على خارطة الدنيا !

وبالرغم من ان عوادي الايام جرعت شيخ النهضة كأسا مريرة وسطت بمنجل القدر على وحيديه الجامعيين « فؤاد » و « شكري » وهما في ريق العمر ، فقد ظل (حبيب) صليب العود ، شديد الايمان ، يصاول الزمان القاسي ويتحداه بعرنين شممه ، منشدا نفسه قول ابي الطيب المتنبي :

كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبي ... ويا نفس زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ... ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما !

ولد حبيب خوري في كفرياسيف (قضاء عكا) عام ١٨٧٩ وتعلم في مدرسة قريته وكان استاذه اللغوي المعروف المعلم امين فارس ، وانتقل الى القدس وانتسب الى « كلية الشباب » « الكلية الانكليزية فيما بعد » وتلقى العربية من سادنها المتواضع المؤمن المرحوم نخلة زريق .

وفاخر (حبيب) بعربيته ، وناطح السحاب بعروبته ، وبز اقرانه بنطقه وتلفظه وتهيامه بأدب (الضاد) ام اللغات حتى بات موضع اعجاب استاذه نخلة زريق ومناط رجائه ، ومن الانصاف للتاريخ ان اقول ان احدا لم ينعم بما نعم به حبيب خوري في خدمة العربية لغة وادبا قرابة خمس وستين سنة متواصلة ، ولم ينعم معلم بمحبة طلابه في (الكلية العربية) وزملائه في ادارة المعارف العامة بالقدس كما نعم حبيب خوري .

كان مساق الدراسة في (كلية الشباب) اربع سنوات وفي نهاية كل عام دراسي كان المعلم نخلة زريق يختار « حبيبا » ليلقي قطعة ادبية ، ففي نهاية العام الاول القى مقطوعة « لابن دريد » مطلعها :

يا ظبية اشبه شيء بالمها ... ترعى الخزامى بين اشجار النقا

وفي اعقاب السنة الثانية القى « حبيب » قصيدة للامام علي ـ كرم الله وجهه ـ مطلعها :

من يذم الدنيا بظلم فانني ... بطريق الانصاف اثني عليه

وفي نهاية السنة الثالثة قرأ « حبيب » قطعة من نظم استاذه نخلة زريق في اطراء المرحوم اسماعيل (بك) الحسيني مدير معارف لواء القدس عام ١٨٩٧ هي :

لئن غاب عنا شخص عارف(٢) حكمت ... لتذكاره في كل قلب مخلد
وفي كل ناد للمعارف مدحه ... بالسنة الاخلاص ما زال ينشد
ولما تبدى صنوه خلفا له ... وكل (لاسماعيل) قد قام يشهد
علمناهم في الفضل والمجد سادة ... (اذا غاب منهم سيد قام سيد) !

وفي نهاية السنة الرابعة كان « حبيب » خطيب الحفلة السنوية ، اذ كان من حق صاحب الاولية في الصف النهائي ان يلقي كلمة المدرسة ، وكان من رفاقه في (كلية الشباب) : خليل السكاكيني ، فرج فرج الله ، الدكتور حبيب سالم ، بولس شحاده صاحب جريدة (مرآة الشرق) المقدسية وشقيقه الدكتور نقولا شحاده ، وفي عام ١٨٩٨ « عين « حبيب » استاذا للعربية في (مدرسة صهيون) بالقدس وامضى فيها اكثر من سبع سنوات وكان من زملائه في التدريس : فرج فرج الله ،

---

(١) ـ اقرأ سيرة حياته مفصلة في كتابنا « الوطن في شعر ابراهيم طوقان » . (٢) ـ كان مدير معارف لواء القدس قبل شقيقه المرحوم اسماعيل (بك) الحسيني .

عبد سالم ، حسن عصفور (من السلط اصلا) ، وفي هذا المعهد الاجنبي عكف « حبيب » على درس الانكليزية دراسة عميقة واتقانها اتقانا حمل الكثيرين من الانكليز والاميركان ان يسألوه بدهشة : « هل انت خريج كمبردج ؟ او انت خريج اكسفورد ؟ »

ونقل استاذ الجيل الفلسطيني الى غزة هاشم مفتشا لمدارس الارسالية الانكليزية والعمل مع المستشرق الدكتور سترلنغ في تصنيف كتاب (الاصطلاحات العربية) ونقح كتابا وضعه هذا المستشرق في (القواعد العربية) بالاشتراك مع الدكتور الياس الحلبي والمعلم نصري الياس الفار ، وامضى في عمله الثقافي هذا بغزة عشر سنوات ، وفي عام ١٩١٤ طلب « حبيب » الى الجندية لكن طابعه العلمي غلب طابع الجندية فذهب الى عكا وكفرياسيف وانبرى لتعليم مواطنيه في تلك الربوع مجانا .

وبعد الاحتلال البريطاني عين (حبيب) مفتشا لمعارف لواء عكا ونقل ترفيعا الى القدس ليكون مفتشا عاما للغة العربية في معارف فلسطين ، وفي عام ١٩٢٣ احتيج الى استاذ للعربية في (دار المعلمين) بالقدس في عهد رئيسها الدكتور خليل طوطح، خلفا للشاعر المرحوم معروف الرصافي فعين (حبيب) استاذا للعربية وآدابها في هذا المعهد الراقي ومفتشا عاما في ادارة المعارف العامة وفي عام ١٩٣٨ عاد الى ادارة المعارف العامة مفتشا عاما للعربية وفي عام ١٩٤٢ تنحى العمل وانصرف لتفتيش اللغة العربية في الكليات والمدارس الاهلية التابعة للمرسلين الانكليز في فلسطين والاردن ، وما زال يقوم بعمله هذا بغيرة وحماس منقطعي النظير .

ومما يؤثر عن استاذ الجيل في فلسطين انه علم اميرين هاشميين هما الامير نايف بن المغفور له الملك عبد الله بن الحسين والامير عبد الاله بن المغفور له الملك علي بن الحسين وثلاثة مندوبين سامين بريطانيين هم : هربرت صموئيل وجلبرت كلايتون وهاري لوك .

آثاره القلمية : صحح (حبيب) كتبا كثيرة في علم النفس والتعليم والزراعة والطبيعيات للاساتذة احمد سامح الخالدي وسليم كاتول واحمد القاسم ، تربو على الاثني عشر قبل طبعها وحين الطبع ، وصنف كتاب (جغرافية فلسطين) وترجم عن الانكليزية كتابا في (الجمعيات التعاونية) وكتاب (صحة الطفل) بالاشتراك مع المرحوم الدكتور حسين فخري الخالدي ، ووضع مخطوطين في تحليل (المعلقات) ومذكرات اثنتين وثلاثين سنة ، ومن المؤسف ان تلك المذكرات آل مصيرها الى اليد الاسرائيلية الاثيمة .

ومن الكتب التي طالعها في شبابه وافادته لغويا وادبيا : القرآن الكريم ، التوراة لا سيما الاسفار الشعرية (كسفر ايوب) (الذي انزل بالعربية) و (سفر الجامعة) و (سفر الامثال) وكتب ابن المقفع ولا سيما (كليلة ودمنة) وديوان المتنبي الذي يحفظ اهم معظمه عن ظهر قلب ، ومقدمة ابن خلدون و (رسالة الغفران) التي يحسبها شيخ النهضة خير ما كتبه العرب .

وذات يوم سألت استاذ الجيل : « كم عدد مؤلفاتك يا استاذ ؟ » فاجاب : « ان مؤلفاتي هم طلابي المنتشرون في سائر انحاء العالم العربي ! » واكد لي انه في طريق الكتابة عن (المتنبي) هذا العملاق العربي الذي حيره وادهشه طوال ستين عاما !

وفي جلسة هادئة عجت بالتفجع على الامة التي تحدرنا منها ، فتفرقت كلمتها ، وتصدعت وحدتها ، وتردت في الحضيض قلت للاستاذ (الحبيب) : « مارأيك في الامة التي ينتمي كلانا اليها ، وقد عشنا دهرنا نهتف لها ونرقب بزوغ فجرها الجديد ؟ » .

قال (حبيب) بلهجة المؤمن بربه ، الفخور بأمته ، الواثق من طاقتها : « بعد خمسين سنة ، كحد ادنى ، او مئة سنة ، كحد اعلى ، يكون للامة العربية مستقبل باهر فيه يخطب ودها ، ويخشى بأسها ، وستساهم هذه الامة الروحانية في ارساء قواعد السلم العالمي وفي نشر العلم كما ساهمت من قبل في نشره مدة سبعة قرون طوال ، كان العالم كله يتناول طعامه العلمي على المائدة العربية ! »

هذه لمحة خاطفة عن استاذ الجيل في فلسطين الشيخ حبيب خوري وقد عاش دهره يتكلم الفصحى ويقول لطلابه : « اشتموني يا ابنائي واتخذوا العربية الفصحى لسانا لكم ! » .

عمان **البدوي الملثم**



محمد سليم رشدان

في مسالك الدروب

صور شتى .. من قريب وبعيد

بقلم محمد سليم رشدان

* * *

الخطيئة المميتة

كان الفتى يقف امام الباب متهيبا ، وفي وجهه من التردد ما يكشف عن حيرته بين الاقدام والاحجام ، واخيرا تغلب على تردده ، فاذا هو بحركة لا شعورية يتلمس ربطة عنقه ويتفقد تسريحة شعره ، ثم يقفل ازرار معطفه ، ويطرق الباب بيد مرتجفة ، ويدخل وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ضارعة ..

وبعد ان خطا في الغرفة خطوات ، وقف وقفة متادبة امام المنضدة الفخمة ، وقال بصوت خفيض متهيب ، وبده اليسرى ترتفع بمجموعة من الاوراق :

« مولاي .. هل حضرتكم السيد فلان ؟.. »

ونظرت في وجه صاحبي الجالس خلف المنضدة الفخمة ، فاذا هو قد غام وتجهم ، واذا هو قد رفع راسه عن اضبارة بين يديه ، وطرح القلم جانبا ، وزم شفتيه المرتجفتين ، وصرخ في وجهه : « انت من ؟.. ماذا تريد ؟ .. » .

وعاد الفتى الخجول ــ وقد افزعه هذا اللقاء ــ يقول بكلمات مضطربة :

« هل انتم السيد فلان يا مولاي ؟.. » .

وزاد هياج صاحبي ، واضطرم الغيظ في نفسه ، وصرخ بصوت اشد هياجا من ذي قبل :

« قلت لك يا .. يا هذا ما الذي تريده ؟.. »

وتنبهت الى (الخطيئة المميتة) التي اقترفها الشاب الخجول المتهيب دون ان يعلم .. ، ونهضت الى نجدته لانقذه من الورطة التي وقع فيها ، وقلت له : « ان فلان (بك) هو الشخص الذي تريده بعينه .. وقد تكرم فلان (بك) وسألك عن حاجتك فاعرض له قضيتك .. » .

وانتبه الفتى الخجول الى اللقب الذي اعدته مرتين ، وادرك انه موضع الداء فبادر يقول : « يا سيدي الـ (بك) .. ان لي قضية عندكم .. وقد جئت اليك يا سعادة الـ (بك) راجيا مساعدتي لانجازها .. » .

ونظرت في وجه صديقي خلف المنضدة الفخمة ، فاذا هو قد انطلقت اساريره ، وعلت ثغره ابتسامة الرضى ، وتكسرت اجفانه تواضعا ، وسرت حمرة الخجل في وجنتيه ، فخيل الي ان اشبهه بالفتاة الجميلة حينما يقف امامها من يطري جمالها ، ويتحدث عن الفتنة الطاغية في وجهها وشعرها وعينيها ..

ورايته يتكلم هذه المرة بنبرات متأنية رصينة ليسال عن موضوع قضيته ، ثم يتناول مجموعة اوراقه فيوقع فيها عدة مرات ، ويحيلها الى من ينجزها له ..

هكذا يا اخي !.. هكذا رايت وسمعت .. وان مصيبتنا بهذه الالقاب لا تعدلها مصيبة ، انها نقد زائف منع التداول به ، ولكنها مع ذلك ما زالت تعيش على السنتنا ، وكثيرون هم أولئك الذين يتخذون منها مخدر نفاق ، يبذلونه لمن تروج عندهم هذه البضاعة . وان انسانا يحترم نفسه ، ويعتد بكرامته ، ليترفع عن قبول مثل هذا النفاق ، وحري بكل واحد منا ان يكون ذلك الانسان ..

في كل واد بنو سعد

كنت منذ ايام خارج الاردن ، وكنت ازور اديبا من الادباء ، فاخذت واياه نشرق ونغرب ، نذكر (زيدا) من الشعراء فينال من شعره ما اتسع له القول ، ثم نذكر (عمراً) من الادباء فينحى عليه بالملامة ، لانه قصر في (كيت) وافرط في (ذيت) . وهكذا .. وهكذا ..

وحين تذكرت ما عندنا .. تذكرت ان الحال لا يعدو ذلك المنوال ، وان ما نعيش فيه من مثل ذلك ، لا يختلف عما هنالك .. تذكرت هذا كله ، وقلت في نفسي : ما اشبهني حيال ما ارى بذلك البدوي ، الذي ابصر من قومه ما يكره ، وقومه (بنو سعد) اهل الميرة وعز العشيرة .. فترحل عنهم الى سواهم ، فكان يبصر في كل حي نزل فيه مثل الذي اخرجه من قومه ، فعاد اليهم وهو يلتمس لنفسه العذر بقوله : « في كل واد بنو سعد .. » !

في (زحلة) الاردن

قال لي صاحبي ، وكأنما هو يستعيد ذكريات حبيبة لديه :

كنت ذات امسية مع صديق شاعر ، نتنزه في حدائق (وادي السلط) ، ومدينة (السلط) هي (زحلة الاردن) قياسا على قول من سلف : « ان مدينة (الحلة) هي (حمص) العراق ، وان مدينة (غرناطة) هي (دمشق) الاندلس .. » ..

وانتهينا الى مكان يجلس فيه شيخ من شيوخ الادب والشعر ، فجلسنا حيث يجلس ، واستغرقنا في حديث طويل ، اقحمنا به انفسنا على ابي تمام وابي الطيب وابي العلاء .. واحتدم بيننا الجدل حتى وصل ذروته ، ثم اذا هو يمر بنا (غزال) اهيف من بنات حواء ، فيبهرنا من جماله ، ما يصرفنا عما نحن فيه من جدل ، واذا بالشيخ الجليل يسبقنا الى القول ، فينشد مترنما :

غزال .. نما الورد في وجنتيه ... وفي مقلتيه ذوى النرجس
اغار على خده من يديه ... وذلك حين له يلمس

ومال الشيخ على رفيقي وقال له : « أجز .. » . فأنشد على منواله :

ولولا حيائي من الناظرين ... لقلت له : ايها الظبي قف
ويا ايها القلب : صف ما تراه ... وان كنت اعجز من ان تصف

ثم مال رفيقي علي وقال : « اجز .. » . وكان الغزال قد بعد عنا كثيرا فقلت اتابع نهجهما :

اقلب طرفي ذات اليمين ... وذات الشمال لعلي اراه ..
ولكنه غاب عن ناظري ... فآه .. وآه .. وآه .. وآه ..

النبوءة الصادقة

كان من عادتي اذا ما قدمت لبنان ان اعرج على البحاثة الكبير والعالم المؤرخ ، الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف . وفي آخر مرة زرته فيها ، كان يتوسط مجلسا غاصا بوجوه اهل العلم والادب والدين . وفيهم الشيخ بجبته ، والراهب بطيلسانه ، والفتى الحاسر بزيه الحضري ..

وكان الاستاذ المعلوف يتحدث في شتى الموضوعات ، ويجيب عى كل ما يوجه اليه من مسائل . وفي نهاية ذلك الحديث ، رايته يطرق براسه ، فيحترم من حوله خلوته الى نفسه ، ويمسكون عن الخوض فيما هم فيه .. ثم يرفع رأسه ليقول بصوت خافت ، يكاد يكون همسا :

« انني منذ ايام اردد هذا القول ، وهو لواحد من سلفنا الصالح (وقد نسبه الى الزمخشري على ما اظن !) وذلك بعد ان تزايد ما احس به من ضعف الشيخوخة .. » ثم جعل ينشد :

يا رب .. لا تحيني الى زمن ... اكون فيه كلا على احد
خذ بيدي .. قبل ان اقول لمن ... القاه عند القيام : خذ بيدي ..

فقلت فيما بيني وبين نفسي :

ان الرجل يتنبأ بوفاته .. ولم يمض طويل وقت ، حتى حملت الصحف نعيه ، فكانت نبوءته صادقة ..

عمان **محمد سليم رشدان**

أنه يسير .. يسير وحده ، ولا يلوي على ظله . الرياح خلفه تعوي .. تصرخ ! كل شيء في حركة ابدية ، اما هو ، فيمشي في الشارع الفارغ ! كل شيء يملؤه الفراغ ، الفراغ في الشارع ، في الحدائق .. في الاماكن العامة .. في كل شيء ، حتى في اعماقه .. انه الفراغ يملؤه !

وهناك على الرصيف تترامى اوراق باكية .. الحزن يكسوها .. ولكنه هو ايضا حزين . ولكن حزنه غير حزنها . انها حزينة على ربيع قد مضى ، اما هو فانه حزين على خريف ابدي مستمر ، خريف زابل بعيد يمتد في اغوار عروقه ودمائه وكيانه .. لم تمر عليه الفصول .. انها الحياة التي يفتقدها ، حياة الفصول ، ويفكر :

« يا لله ، نحن البشر ، اجل اغلب البشر ، نعيش فصلا واحدا هو الخريف ! اما الشتاء بعبوسه .. بلوحاته الاليمة ، شتاء الالم ، فلم نعرفه .. واما الربيع ذلك الابتسام الوردي الذي يتلو الالم ، والذي يغمرنا بالفرح الخالد ، فاننا لا نعرفه .. اما الصيف تلك الضحكة الوحشية الحارةحين يحرقنا الازدهار التام فهذا ما نجهله .. نجهل ظهيرة الحياة .. انه الذبول يملؤنا .. يا لحياتنا !.. »

ويمضي .. يتابع خطواته في الشوارع الباكية ، حزينا باكيا بكاءه الاخرس .. يا للاسف !..

ينظر الى حياته الماضية .. لقد كانت فراغا !.. خمسون عاما قد مضت وهو لم يعرف بعد كيف قضاها ؟!

وينظر الى السماء ، النجوم ترصعها ، انها نجوم تجوب في الفضاء .. ملكها الفضاء الرحب اجل ، اما هو فلا يستطيع ان يخرج من هذه البقعة الصغيرة التي تشده اليها .. انه لا يجوب الحياة كما تجوب هذه النجوم الضاحكة ضحكة الزمن الابدي الفضاء الرحب اللامتناهي .. انه لا يشعر بلذتها وهي ملكة للفضاء !

وفجأة ، يسمع صوتا مدويا فيدير وجهه ليرى شجرة كبيرة قلبتها الرياح ، وانهالت دمعة : انها حياته يقلبها الهواء الفارغ لانها فارغة . ويستيقظ في اعماقه لحن قديم كان يصفره عندما كان صغيرا :

قرب بيتي

يسيل جدول صغير

يمر في السهول والغابات والجبال

ثم ينتهي الى البحر الكبير !

ويمضي .. يسترجع الذكريات .. ماذا فعل ؟! لا شيء ! وتعود اليه لوحات من طفولته : انه المحل

أين الفصول يا خريف

بقلم كامل كرباج

والقحط في هذه الحياة ! تمر الصور امامه لوحة خلف لوحة ... كان يفيق عند الصباح ، تأتي امه وتقبله قبلتها المعتادة التي تكررها كل يوم حتى بات يمجها .. وتهيء له فطوره الدسم المغذي ، فيأكله وهي تداعبه مداعباتها العادية الرتيبة .. انه يشعر الان بذلك الملل الذي كان يعتريه في ذلك الحين على الرغم من انه كان طفلا .. آه ! لقد ظلت امه تعتبره طفلا حتى عندما اصبح في الثانية والعشرين .. وحتى عندما تزوج وانجب اولاده .. متى يصبح الاطفال رجالا .. اترى امه لا تزال تعتبر نفسها طفلة حتى الان!

انه يتذكر خطوات امه في الصباح الباكر وهي تمشي على رؤوس اصابعها خوفا من ان توقظ ابنها المدلل !.. ويتذكر هذه الاشياء .. وتسيل دمعة سوداء في قلبه .. « اواه ! ما معنى هذا ؟ » ويتابع الرجل الوحيد الحزين سيره في الشوارع الفارغة فراغ حياته ..

وتلوح له صورة في افق خياله : قطار بلا محطات ولا انعطافات .. دربه مستقيم ابدي .. نهايته قرب الافق ، لا يفتأ يردد نغمة واحدة خاملة ملت منهاالزهور التي تحيط بالدرب !.. ويمضي .. وتعود الذكريات ، ويتذكر جيدا كيف كان يأكل مأكولاته اللذيذة ، يتذكر جيدا كيف كانت تصحبه امه كذلك حتى الباب ، بل حتى باب الباص الذي كان يقله الى المدرسة ، كان يلتفت اليها ويبتسم ابتسامته ويلوح بيده ، ويمضي .. كانت كلها اشياء بلا معنى .. يا للاسف !

انه يتساءل جيدا : هل كان يشعر بالسعادة ؟ كلا : لم يكن يشعر بالسعادة ، بل بشعور غامض ليس له اسم ، انه ليس بالسعادة ، ولا بالالم ، انه الشعور برتابة الاشياء ، كان يشعر بارتياح عندما يفعل هذه الاشياء ، ويا لهذا الارتياح ، لكم يتمنى الان لو انه لم يشعر به ، لو انه كان انسانا اخر !

كان يعود من المدرسة ليستقبله والده بقبلة ، ويجلس الى المائدة فاذا الحديث يدور حولمستقبله ومستقبل اخيه ، ماذا سيكون في يوم من الايام ؟ يا لله ، انه يعلم الان ما كان مبعث هذا التساؤل : لا ، لم يكن يشعر برضى عن حياته الحاضرة ، ولذا كان يفكر بالمستقبل مع اهله !

كان يسمع اهله وهم يتكلمون عن هذا وذاك ، عن هذه الجارة وتلك القريبة ، وهذا الصديق وزوجته ،



وفي المساء يقرأ هذا العلف المهيأ له في الكتب ، ثم ينهض .. يقبل امه واباه ، ويمضي كالارنب الصغير الى الفراش ليحلم .. بماذا ؟..

لا شيء يحلم به ، بل انه ليحلم بان يكون مثل والده رب بيت وابا ناضجا .. يحلم بان يكون احد اولئك الرجال الكبار العاقلين الذين يراهم وهم في زيارة والده، يتكلمون معه عن السياسة وعن البورصة وعن التجارة وعن الاشخاص العاقلين وعن كل ما هب ودب في العالم بتعقل ورصانة لا تشوبهما اي روح انسانية تنطلق من اسار تلك التفاهات التي تحسبها اشياء هامة لا يمكن ان يحكى عنها بهزل . انه يذكر كيف اقترب من والده ذات مرة ليسأله عن ذلك الحيوان الاسطوري الذي يقال ان نصفه اسد ونصفه الاخر انسان . اقترب يسأله عن قصة واسباب جلوسه كحارس لصحراء بعيدة .. شاسعة لا نهاية لها ، ولا حدود . فما كان من والده الا ان قبله — بوقار ورصانة وهو ينظر الى اصدقائه — وقال له : اذهب الى والدتك فهي تعرف هذا الحيوان جيدا .. ولا تعد الينا ثانية .. هذا عيب !

يذكر كيف ذهب الى والدته فاذا به يجدها مع عدة نساء يتكلمن عن هذا الثوب الجميل وتلك القطعة القماشية وعن اسعار صالونات التجميل وعن المدارس وبائع الاحذية والروايات الصادرة حديثا وعن افلام الاسبوع ومستقبل اولادهن . ويذكر كيف سألها ذلك السؤال فابتسمت في وجهه وقبلته هذه القبلة التي مل منها .. وقالت له : كلا .. لا يوجد هذا الحيوان . وعليك الا تستمع لهؤلاء » . حاول ان يسأل غير امه .. ولكن ، من يجيبه غير الجدران ؟

ومنذ ذلك اليوم ماتت في نفسه الفتية براعم الحياة . نسي الاساطير ولم يعد يفكر ، لم يعد يحلم بان يكون مثل روبنسون كروزو ، بحارا يجوب المحيطات والبحار كي يرسو بعد مغامرات شديدة في جزيرة ، ليعيش فيها وحده سنين طويلة .. وحده امام وجه الحياة .. لم يحلم بهرقل ، ولا بفارس عبد جبار كان يقتل كل خمسين صنديدا دفعة واحدة .. لم يعد يحلم بعنترة .. ولا بآخيل ، ولا بباريس ..

سمع مرة هذه الحكاية عن عالم كان يدعى شليمان (شليمان شخص حقيقي وهو الذي اكتشف طروادة فعلا في القرن التاسع عشر) قرأ الالياذة في طفولته فملأت نفسه ، وسأل والده عن مكان طروادة ، فقال له انها مدينة مفقودة ، بل انها مدينة اسطورية . ولكن الفتى الصغير شليمان عز عليه ان يكون آخيل وباريس وهكتور اشخاصا اسطوريين ولذا عزم على ان يكتشف هذه المدينة التي بات يقرا عنها في هذا الكتاب الكبير كل يوم وليلة . وفعلا ، راح يجوب الافاق يجمع المال ويتاجر ، وراح يهاجر من بلد الى بلد ، الى ان وصل الى اليونان ، ثم وصل الى اسية الصغرى وهناك باشر حفره حتى وجد بعد عناء تسعة اعوام طويلة مدينة قديمة : آه .. لقد كانت طروادة !

سمع هذه القصة ولكم ود ان يكون مثل شليمان هذا .. ولكن والده نهره ، فنهر ذاته هو ايضا ، ما هذه الاحلام ؟ وهل يكون مكتشفا ؟ انه لن يغبر اقدامه بغبار الدرب المتعب ..انه لن يكون مثل كولومبوس وماجلان ، يكتشف القارات ، ومن ثم يكتشف وجه الحياة . لقد هيأ له القدر ان يجلس خمسة عشر عاما على الطاولة المدرسية ، ثم بقية حياته على طاولة العمل كرجل الاعمال الصارم الرزين .. يأكل علف الاوراق !

انه يذكر جيدا كل هذه الاشياء وهو الآن يسير وحيدا في الشارع الفارغ وقد مضت خمسون عاما من حياته . انه يذكر كيف كان يصلي كل احد عندما يذهب الى الكنيسة ثم يعود الى داره . ومن داره الى عمله — او الى مدرسته عندما كان لا يزال صغيرا — ومن عمله الى داره . كانوا يقولون عنه : يا له من اب قديس ، من انسان صالح يحب عائلته . .وعائلته تحبه !لكنهم ماكانوا يعرفون ماذا يجري في داخله .. في داخل كيان عائلته !

حتى زواجه .. انه لا يزال يذكر لوحته كيف رسمت ، يذكر كيف كان يزور في احد الايام مع اهله جيرانه ، وكان عندهم اقاربهم . هناك راى احدى الفتيات الجميلات ... تعرف عليها ،وتكررت هذه الزيارة ، فاحبها ،وصرح بهذه الرغبة لاهله ، ثم قال لفتاته انه يرغب الزواج منها ، فقبلت ، وتمت الخطبة بموافقة الاهل .. ثم تم العرس ، وتمت اشياء كثيرة على هامش الحياة ومضت خمسون عاما ، وهو يتساءل الان : هل تراه احب زوجته فعلا قبل ان يتزوجها وبعد الزواج ايضا كما كان يدعي — ام ان عمله هذا كان تقليدا ميتا ، كان حاجة للاستقرار .. ولايجاد نصفه المفقود ، كما كان يدعي ؟

الاستقرار .. لقدمل من هذا الاستقرار الفارغ ، من تلك الحياة الرتيبة . كان اهله ينبهونه : انتبه من الانزلاق في مهاوي الرذيلة ، ابحث عن زوجة فاضلة تستطيع ان تدير بيتها وتلبي حاجاتك ، وابتعد عن مشاكل « العشق والحب » اياك من المشاكل ... الاستقرار .. الاستقرار .. هذه الكلمة التي ثقبت اذنه ، هذه الكلمة التي حطمت قلبه في ذلك الحين والتي حطمت حياته الان !

انه يذكر كل ما كان يجري في حياته العائلية . وعندما اصبح رب عائلة ، تعرف ذات مرة على فتاة شعر بانها انسانة نبيلة تبعده عن جو داره الثقيل الرتيب ، انسانة

نزقت حجاب الحياة عن وجهها ومشت نحو الشمس ، شعر بانها يمكن ان تعطيه الحياة التي يفقدها بل شعر انه يجد لديها راحة نبيلة انسانية سامية تعيد اليه حيويته لا اكثر ولا اقل . ولقد عرف انها لن تؤذي علاقته مع زوجته . ولكنه ابتعد .. سمع صوتا في اعماقه يقول له : ابتعد .. انها الفضيلة ، يجب ان تكون زوجا مخلصا لزوجتك التي احببتها في اليوم الاول من معرفتك اياها وظننت انك سوف تحيا واياها كزوج حمام طاهر .

لكن هذه الحياة العائلية التي كان يحلم بها مع زوجته تحولت ، لقد تزوجها ولم يحارب معها ولا في اية معركة ، لم يحاربا سواء ولم يذق معها طعم الانتصار المشترك حتى يشعر بانها نصفه الابدي .. كل ما كان ان اعجب بها ، فتزوجها ومضى .. انه يذكر ايامه الماضية حين كان يدخل الى الدار ، فيلقي بتحيته ويجلس على الاريكة ، يسأل زوجته عما هيأته له من الطعام فيأكل ، ومن ثم يتجاذبان بعض اطراف الحديث ، دقائق قليلة ثم يداعب اولاده .. وبعد ذلك يذهب الى فراشه لينام ، بل ليتفق وزوجته على زيارة لاقاربه في اليوم التالي او على ان يذهب الى النادي .

يا لله ! لم يعرف طعم انفاس زوجته عندما كان عليه ان يخوض واياها المعارك مع الحياة ، لم يعرف طعم انفاسها الا عندما كان يأتي الليل فيشعر بها وهي بقربه في الفراش .. حين كان يشعر بجسدها يلتصق به ، ثم يشعر بقشعريرة ، ونشوة قصيرة وبانفاسها الحارة المتلاحقة .. وينتهي كل شيء ، وينام ليفيق صباحا وتعود الاشياء كما كانت عليه في اليوم السابق .

خمسون عاما قد مضت وهو هكذا .. لا تثور في نفسه ثورة ، ولا يشعر بوحدة مقدسة ، تعيد اليه نفسه الضائعة ، لم تعش الازمة في اعماقه ، وهذا ما كان ينقصه : الازمة ! لقد كان يكرهها ، لم يعلم انها تعيد للانسان ثبوتيته .. ولم يعلم انها امتحان له امام وجه الحياة خمسون عاما قد مضت وهو هكذا .. يا لله .. انه يسير الان وحده في ذلك الشارع ، وهذا اول يوم في حياته يشعر فيه بتلك النكسة ، بل هذا اول يوم في حياته يتجول فيه وحيدا في الشوارع الفارغة كشاعر تحطمت قيثارته ! ويسمع صوت تغريد رقيق ، وينظر الى شجرة فوقه فيلوح له عصفور جميل ، ويتردد في اعماقه صفير اللحن البعيد :

قرب بيتي
يسيل جدول صفير
يمر في السهول والغابات والجبال
ثم ينتهي الى البحر الكبير !

لكم يتمنى الان لو كان فقيرا ، لكان عرف فذاق اشياء كثيرة في حياته ، ولعرف الالم ومشاعر كثيرة ! ولكن الفقراء ايضا يقضون حياتهم هكذا .. يمرون بتجارب كثيرة ، ولكنهم لا يعرفون جيدا ، ما الالم ، ما البكاء ، ما الضحك !

ان الناس يسمون هذه الاشياء سعادة ! لقد بات يكره هذه السعادة ، لم يعد يطلب سعادة .. انهم يفرقون بين فقير وغني ! ولكن الامر ليس بالفقر ولا بالغنى ، انها الحياة .. حياتك . لقد احس اليوم بقيمة هذه الحياة عندما رأى صديقا له لم يشاهده منذ ثلاثين عاما ، سأله اين كان ؟ فقال له : لقد جبت العالم كله ، جبت عالم نفسي ،وعالم الارض .. قضيت حياتي بحارا وسائقا وموظفا ورحالا وصاحب متجر وبائع جرائد وعالم نبات ، وتعرفت على اشخاص كثيرين ، لقد رأيت البشر ، ورأيت الحياة . واحببت الكثيرات وكرهت الكثيرين .. واحببت ولكني لم أتزوج ألا بعد تجارب كثيرة ، عندما وجدت نصفي ! واشار الى فتاة هندية يلوح عليها الجمال الساحر ، جمال بلاد التوابل ، لقد رأى في عينيها كل حياته ، ورأى الحياة ايضا ..كانتا تبرقان ببريق الالم الضاحك آنذاك عادت الى مخيلته صور علاء الدين وروبنسون كروزو وآخيل المكبوتة .. وتركه ومشى في الشارع الفارغ .

انه الان يفكر .. كان يحتاج الى ان يعرف شيئا وحيدا :التجربة انها قيمة الحياة ! انه الان يتمنى ان يبكي ، ولكن بكاءه ليس كبكاء اوراق الخريف ! انها تعرف الشتاء والصيف والربيع ، اما هو فليس له الا خريفه !

كان عليه ان يهرب من جحيمه، وكان عليه ان يغامر باسطورة استقراره بحثا عن الحياة في جزر المتاعب في جزيرة روبنسون كروزو .. يا للاسف ! انها الحياة الضائعة، لقد فقد الشمس ، كانت ايامه ذابلة ، قاحلة مملة .

انه يفكر الان ، وخطواته ترن في الشارع الفارغ .. وفي الفضاء سنونو يطلق اصواتا .. غريبة جديدة ..

انه يشعر بكره لحياته الماضية ، لقد بات ينبذ هذه الايام الرتيبة التي قضاها . اجل ، لم يعش الازمة الانسانية ، لم يستطع ان يخلق اشياء جديدة لحياته وللناس كان يرى في الخمرة شرا ما بعده شر ، وكان يؤمن بان من يسكر كي يكتسب الجنون السامي للخلق ، كان يؤمن بان هذا الرجل يرتكب رذيلة ما بعدها رذيلة .. اجل ، لم يعرف معنى المأساة ! كان يؤمن بفضيلة لا تعلم الا الرتابة ، ولم يؤمن بفضيلة تعلم الحياة التي تتغاضى عن الخير والشر والسعادة والارتياح من اجل التجربة ، من اجل الحياة !

فمتى ترتاح نفسي

قد نفى الهم هجوعي   مذ ابى الدهر زجوعي
ان ذكرت الاهل فاضت   في مدى الذكرى دموعي
او تدانى الشوق حينا   ألهب الشوق ضلوعي
واذا الستون وافت   ورست معها قلوعي
قلت يا نفس اطمأني   ها انا القى ربوعي

سوف القاها اذا ما   سمع الدهر شكاتي
واستجاب الله سؤلي   بابتهالي وصلاتي
فلكم ارنو اليه   سائلا منه نجاتي
من نوى ان هي طالت   قصرت معها حياتي
فاهدني يا رب الق   موطني قبل مماتي

يا لنفسي اين منها   طيب هاتيك الليالي
عهد كنا نتشاكى   الحب في ظل الدوالي
تارة أنفح ليلى   برفيف من خيالي
واناجي الصحب حينا   بأناشيدي الغوالي
طمس الدهر رؤاها   وانطوت تلك الليالي

فاذا ما جن ليلي   وطمى فيه اكتئابي
ورنت بي ذكرياتي   نحو هاتيك الروابي
قلت وا شوقي الى م   وانا ابكي اغترابي
كلما ازددت حنينا   كلما ازداد انتحابي
فمتى ترتاح نفسي   منك يا عهد التصابي

الارجنتين   **فائق جبور**

انه الان يود ان يفعل شيئا ما ، ان .. وتنهار دمعة ثقيلة على الارض .

* * *

بعد عدة ايام كان الناس يقرؤون في احدى الجرائد اعلانا عن رجل يبلغ من العمر خمسين عاما اخذ ولدا من اولاده معه ، وغاب عن عائلته فجأة ، وليس معه الا بضع ليرات . وبعد عدة اعوام ايضا اذا بالجرائد تتكلم عن بطل جديد لتسلق الجبال في اسبانيا ، يطل في كل يوم وساعة على هاوية جديدة ، ويعيش وحيدا مع ابنه في غرفة موحشة ، يدربه على تسلق الجبال كي يصبح في يوم ما دليلا لهواة هذه الرياضة !

لقد اصبح بطلا لا يسير وحيدا في الشوارع الفارغة في الخريف كي يطأ باقدامه الاوراق الذابلة ،بل كي يمشي فوق احجار الجبال الوعرة مع ابنه الشاب ، وبعين الوديان الرهيبة ، وكي يقضي لياليه غير المقمرة في تلك الكهوف التي تملأ الجبال ، يقضيها وهو ينظر الى النيران التي يتطاير منها الشرار ؛ والرياح تعوي في الخارج .. ثم يتابع في الصباح التالي سيره فوق الثلوج البيضاء وهو يغني هذه المرة :

قرب كهفي
هناك هاوية رهيبة
تحيطها الصخور والرياح
وتنتهي في عمق اعماق الحياة !

حلب   **كامل كرباج**



البيان العربي

تاليف الدكتور بدوي طبانة ـ الطبعة الثالثة ـ ؟ صفحة ـ المطبعة ؟

حينما اصدر العالم النفسي المشهور تشارلس فوكس الطبعة الثانية من كتابه « علم النفس التربوي » كتب مقدمة موجزة يسوغ بها التعديلات الاساسية التي ادخلها على الطبعة الاولى من كتابه ، استجابة لما استحدث من دراسات وتطبيقات ونظريات جديدة يظل كتابه متخلفا عنها لو لم يلاحظها في الطبعات الجديدة من كتابه .

وكذلك فعل مؤرخ الحضارة والفلسفة « ول ديورانت » حينما اصدر الطبعة الثانية من كتابه : « قصة الفلسفة » الذي ظهرت اولى طبعاته سنة ١٩٣٣ ، وظهرت طبعته الثانية في اخريات العام نفسه ...

وحينما اصدر المؤرخ العربي الدكتور « فيليب حتي » الطبعة الثانية من كتابه العظيم : « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » ادخل عليها من التغيير والتعديل ، والحذف والاضافة ما توصل اليه من نتائج الابحاث والدراسات الجديدة التي كتبت اخيرا عن هذه المنطقة من العالم العربي ، (كما اخذ بعين الاعتبار ايضا نقد المراجعين وملاحظات الزملاء والطلاب والمراسلين في كل انحاء العالم ... وكانت النتيجة انه لا تكاد تخلو صفحة من الطبعة الاولى من تغيير او تصحيح او اكثر) .

لقد مرت بذهني هذه الوقائع الثلاثة ، وانا اقرأ مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب « البيان العربي ـ دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ، ومناهجها ومصادرها الكبرى » استعدادا لقراءة الكتاب كله في طبعته الجديدة ، بعد ان قرأته في طبعته الاولى من بضع سنوات . فقد حرص الدكتور بدوي طبانة على ان يجعل كتابه متطورا متجددا ، وان لا يجمد موضوعه عند الحال التي كان عليها في اولى طبعاته ، وان لا يقف به والزمن يسير ، والعقل يتابع نشاطه ، والرأي يختلف عند المؤلف ، استكمالا للصورة التي يريدها لكتابه ، حتى يكون اوفى بموضوعه ، وأتم لدراسته ، واكثر انسحابا وانصبابا على العصر الحاضر . فحذف من الكتاب فصلا كاملا هو الفصل الذي عرض فيه للدراسة المفصلة للمباحث التي تنتظمها علم البيان كما حددها علماء البلاغة ، واضاف فصلا كاملا عن فكرة البيان عند المعاصرين (لاتمم بها الصورة ، واصل هذا البيان ، كما تصوره الدارسون في شتى العصور ، بالبيان كما يتصوره المحدثون) .

ونحن لا نلوم المؤلف على هذا التعديل والحذف والاضافة في الكتاب، بل نشكره عليه ، ونحمده له ، فان في ذلك دلالة اية دلالة على تجدد الفكر وحيويته من ناحية ، وعلى اصالة الروح العلمية من ناحية اخرى ، ونامل ان نرى الكتاب في الجديد المرجو من طبعاته ، وقد استكمل الصورة التي يرجوها له المؤلف ونرجوها نحن معه ، فان فرق ما بين الطبعتين الاولين والطبعة الثالثة التي نتحدث عنها اليوم فرق هائل يجعل من هذه الطبعة كتابا جديدا او كالجديد ... مما جعل الدكتور بدوي يقول في المقدمة : (وكذلك زدت في ثنايا البحث دراسات كثيرة رأيتها ضرورية لاستكمال حلقاته ، على حسب ما تبين لي من المصادر التي كشفت ، والتي يمكن ان تعد من احجار الزاوية في بناء صرح البيان العربي. وسيرى الذين يقرءون « البيان العربي » في هذه الطبعة ـ اذا كانت اتيحت لهم فرصة الاطلاع على الطبعتين السابقتين ـ الفرق الواضح بينها وبينهما ، ولست اشك في انهم سيرون في هذه الطبعة تعديلا جوهريا ، وفصولا اعيدت كتابتها من جديد، وسيعترفون بالجهود المتواصلة في خدمة الفكرة ، ومداومة التنقيب عن مصادرها ومواردها) .

والحق اني استعجل الايام لنفاد هذه الطبعة الجديدة المعدلة المبدلة المنقحة المزيدة ، لارى في المستقبل من الطبعات بعض ما كنت ارجوه في الطبعة القائمة ! فالدكتور بدوي طبانة ـ كما يبدو لي من قراءتي لكتبه ـ ذو عقلية منظمة ، فهو يعرض الافكار في تنظيم وتسلسل وترتيب لا يسعك معه الا ان توافق على ما يقول ، ولست تجد في افكاره المنظمة النضيرة كحبات العقد اضطرابا ولا قلقا ولا تشويشا ، وخاصة في موضوع كالبيان مشتت الاطراف . ولكن لا ادري لماذا جافاه هذا التنظيم والتفصيل وهو يعرض لنا تطور الدراسات البيانية على مدى القرون ؟

فالقرون الثلاثة الاولى للاسلام ـ وهي السابقة على القرن الرابع الهجري ـ قد فصل فيها المؤلف الكلام على المحاولات البيانية الاولى ، سواء أكانت متصلة بخدمة القرآن الكريم وبيان وجوه اعجازه ، ام اتسعت لتشتمل على فنون الادب . وقد جاء في هذه القرون الثلاثة احاديث جياد عن ابن قتيبة ، وبشر بن المعتمر ، والجاحظ ، وابن وهب صاحب كتاب « البرهان في وجوه البيان» ، وثعلب صاحب كتاب « قواعد الشعر » ، وابن المعتز الخليفة العباسي المقتول سنة ٢٩٦ هـ ، والذي كان خاتمة البيانيين في القرن الثالث الهجري . ثم خص المؤلف القرن الرابع وحده بفصل جاء ذيلا في نهاية صفحة ٩٩ ، مع ان حقه ان يكون رأسا قائما بذاته ، تمييزا لقرن من قرن ، وتفصيلا لتطور الدراسات البيانية قرنا بعد قرن ، حتى تتضح اسماء البيانيين في كل قرن وضوحا يعين القارىء على ادراك الصورة الكاملة لرجال البيان العربي على مختلف العصور . وفي القرن الرابع ظهرت القواعد البلاغية مختلطة بالنقد الادبي وملازمة له اكثر الحين . ومن رجال البيان والنقد والاعجاز القرآني في هذا القرن ابن طباطبا العلوي صاحب كتاب « عيار الشعر » ، وقدامة بن جعفر صاحب كتاب « نقد الشعر » ، والرماني صاحب كتاب « النكت في اعجاز القرآن » ، والآمدي صاحب كتاب « الموازنة بين ابي تمام والبحتري » ، وابو هلال العسكري صاحب كتاب « الصناعتين » والقاضي الجرجاني صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، واحمد بن فارس صاحب كتاب « الصاحبي في فقه اللغة العربية » . وقد فصل المؤلف الكلام عن هؤلاء الاعلام البيانيين ، وكشف عن دور كل منهم في العون على تطوير الدراسات البيانية والتجديد فيها .

وفي منتصف صفحة ١٣٤ خص المؤلف التفكير البياني في القرن الخامس بفصل كنا نرجو ان يكون رأسا قائما بذاته ، حتى لا ينساب قرن في قرن . وهذا التمييز بين قرن وقرن ضروري جدا في هذا الكتاب ما دام المؤلف قد اتخذ التطور الزمني على مر العصور اساسا لدراسته . ولكن المؤلف لم يلتزم هذا التمييز الزمني في الكتاب ، فاغفل القرن السادس من حسابه ، ولم يبرزه ، ولو في ذيل صفحة او في منتصفها ، كما فعل في القرنين الرابع والخامس من قبل ، فطفر من ابن رشيق صاحب كتاب «العمدة» ، وابن سنان الخفاجي صاحب

كتاب « سر الفصاحة » وعبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » ـ وهم من رجال البيان في القرن الخامس، الى اسامة بن منقذ صاحب كتاب « البديع في نقد الشعر » . واسامة هذا توفي سنة ٥٨٤ هـ فهو من رجال القرن السادس الهجري . فكان الاولى ان يشار في اول الحديث عنه وعن مشاركاته البيانية الى ان الكلام هنا يبدأ عن قرن جديد ظهر فيه الضعف في التفكير البياني ، وتمثل هذا في كتاب اسامة بن منقذ الذي لم يعد فيه الرجل الا ان يكون جامعا وناقلا عمن سبقوه ، فلا مزية فيه من اصالة او ابتكار .

هذه الظاهرة العجيبة من اجداب القرن السادس من الدراسات البيانية الاصيلة كان يجب اظهارها ، كما كان يرجى من المؤلف التعليل لها بعد تلك القمم التي بلغتها الدراسات البلاغية حتى نهاية القرن الخامس .

فاذا ما بلغنا القرن السابع الهجري نرى الدكتور بدوي طبانة لا يفرده بفصل ولا رأس قائم بذاته ، بل يدمجه فيما قبله من كلام عن اسامة بن منقذ قائلا : (ثم يعود الى البحث البياني شيء من الصحوة في القرن السابع ، يتمثل في بعض الاثار الجيدة ...) وهكذا تضيع معالم العصور والقرون وتحديداتها في موطن كان اجدر بالمؤلف ان يحافظ عليها فيه .

ويلاحظ ان من البيانيين في القرن السابع ابن الاثير صاحب كتاب « المثل السائر » ، وابن ابي الاصبع العدواني المصري صاحب كتابي « بدائع القرآن » و « تحرير التحبير » ، والسكاكي صاحب كتاب « مفتاح العلوم » وهو الذي جعل من الدراسات البيانية البلاغية مجالا استدلاليا ـ لا ذوقيا ـ لتعقيد القواعد ، وتقنين القوانين ، ووضع التعاريف ، وغير ذلك من الامور التي افقدت البلاغة قدرتها على تذوق البلاغة ... وقد اجاد الدكتور بدوي عرض مشاركات هؤلاء القوم البيانية ، كما اجاد في عرض جهود الذين سبقوهم فيما مضى من العصور .

ويجيء القرن الثامن الهجري فلا يشير اليه المؤلف ولو بكلمة عابرة ، ولا يفرده بذكر ، جريا على ما انساق اليه من اغفال القرون ، مع ابرازه للقرنين الرابع والخامس فحسب ، ويترك المؤلف القارىء يحدد القرون ووعاءها ورجال البيان فيها بنفسه ... فلا يعرف القارىء مثلا ان يحيى بن حمزة العلوي صاحب كتاب « الطراز » هو من رجال القرن الثامن الهجري الا من خلال ترجمة قصيرة للرجل في هامش الكتاب .

واذا كان الدكتور طبانة قداغفل ابراز قرن ـ كالسادس مثلا ـ لما فيه من جدب الدراسات البيانية او هزالها ، فان القرن الثامن كان خليقا منه بالذكر والاشارة المتميزة في اول الفصل ، لانه القرن الذي ظهر فيه كتاب « الطراز » للعلوي ، ولانه كما يقول المؤلف العصر الذي (اكتملت فيه عناصر البحث البلاغي ، بعد ان انتظمت علوم البلاغة ، وتركزت وجهات النظر اليها ، ووقفت عند حدودها واقسامها وقواعدها وفنونها التي عرفت واستقرت على ايدي رجال هذه المدرسة ، وبعد تلك الدراسات الخصبة التي تقدمتها في القرون السابقة) . ثم ما هي هذه المدرسة التي يشير اليها المؤلف هنا ؟ ومن هم رجالها ؟ أيكون منهم الخطيب القزويني صاحب « تلخيص المفتاح » ، والخلخالي صاحب « شرح المفتاح » ، وعضد الدين الايجي صاحب « الفوائد الغياثية » ، وبهاء الدين السبكي صاحب « عروس الافراح » ، ومحمد بن يوسف ناظر الجيش صاحب « شرح التلخيص » ، وشمس الدين القونوي ، وسعد الدين التفتازاني صاحب شرحي التلخيص ؟؟ اللهم ان هذه المدرسة القاعدية التقنينية الجافة لن يكون منها يحيى بن حمزة العلوي صاحب « الطراز » ، وصاحب البلاغة العملية ، لا البلاغة الآلية الجامدة التي يمثلها شراح التلخيص والمتهافتون على قواعد السكاكي وتعريفاته ، ممن لم يرزقوا الذوق البياني ، ولا كان عندهم اثارة من التذوق الجمالي الذي كنا نجده عند البلاغيين الاولين .

ومن عجب ان الدكتور بدوي طبانة ينتقل بعد ثلاث صفحات من ذكر « رجال هذه المدرسة » الى قوله : (ومن انفس كتب هذه المدرسة في القرن العشرين كتاب « البلاغة الواضحة » الذي الفه الاستاذان مصطفى امين وعلي الجارم ...) ولا ادري اية مدرسة يعني الدكتور طبانة ؟ أهي مدرسة شراح المفتاح وتلخيصه ، وهي مدسة هزيلة عقيمة مجادلة مماحكة ؟ ام مدرسة صاحب « الطراز » يحيى بن حمزة العلوي ، وهي تختلف عن المدرسة التي ينسب اليها علي الجارم ومصطفى امين اختلافا واضحا ؟ وان كانت تلتقي معها في الاتجاه الى اثارة الذوق في بعض المواضيع ، والى التنبيه الى جهات الجمال والكمال في التعبير ، من غير حاجة الى حدود او تعاريف او مصطلحات ، ومن غير التجاء الى استعمال المنطق والاستدلال في بعض الاحيان ؟

وقد انصف الدكتور طبانة حين خص كتاب « البلاغة الواضحة » لعلى الجارم ومصطفى امين بهذه الصفحات الثلاث ، وهو يؤرخ لتطور الدراسات البلاغة عند العرب ، فعلى الرغم من الطابع « المدرسي » الذي بدا به هذا الكتاب فان اثره لا يغفل في استثارة الذوق البلاغي عند طلاب المدارس ، وهي غاية عملية لدروس البلاغة العربية، سواء اكانت عن طريق « الكتاب » ام المدرسة . وقد نجح هذا الكتاب في تحقيق هذه الغاية ، كما نجح كتاب من قبل في القرن الماضي، وكان خليقا من المؤلف ان لا يغفله . وهذا الكتاب هو «الوسيلة الادبية» للشيخ حسين بن احمد المرصفي الذي كان مدرسا بدار العلوم منذ انشائها سنة ١٨٧٢ وظل مدرسا بها ثمانية عشر عاما . والحق ان الشيخ حسين المرصفي صاحب فضل في اشاعة الذوق البلاغي في وقته ، كما ان مشاركته في تدريس البلاغة على طريقة التذوق ـ لا القاعدة ـ كان لها اكبر الاثر في اخراج جيل من مدرسي اللغة العربية هو الذي تخرج على يديه جيل علي الجارم ومصطفى امين . ولقد عرض المرصفي موضوعات فن البيان : المجاز والاستعارة والكناية ، وموضوعات علمي المعاني والبديع عرضا ، ولو انه يميل الى التعريف ، الا انه قرنه بنماذج من امثال العرب واشعارهم المختارة وكتبهم وخطبهم، لتكون اجلى معرض للبيان العربي .

الحق ان كتاب « الوسيلة الادبية » للمرصفي كان اولى ان يشار اليه في كتاب « البيان العربي » لانه تخرجت عليه مدرسة في النصف الثامن من القرن الماضي بعد فترة طويلة من الركود والجمود في الدراسات البيانية . وفضله في القرن الماضي لا يقل عن فضل كتاب « الطراز » للعلوي في القرن الثامن .

والدكتور بدوي طبانة كثير الانصاف للمظلومين والمنسيين من رجال البيان العربي ، حتى كانه موكل بالدفاع عنهم ، والتماس النصفة لهم من زمانهم . وما اجمل انصافه وهو يذكر كتاب « الصاحبي » لابن فارس ، ثم يقدره قدره الصحيح في ميدان الدراسات البلاغية الاصيلة قائلا : (ولكن البلاغيين نسوا كتاب الصاحبي ، واهملوه اهمالا شنيعا ، حتى لقد يسبق الى الظن انهم لم يقفوا على هذا الكتاب ولم يقرءوه مع شهرة صاحبه بين العلماء والادباء ، ومن هنا لم يشيروا اليه ، ولم يفيدوا من الدراسات الجيدة التي تميز بها ، والتي هي في الوقت نفسه من اهم ما يعالجون في كتبهم ، بل ان كثيرا من الموضوعات التي عالجها ابن فارس يمكن ان تعد اصلا من اهم الاصول في دراسة البلاغة والبيان ، حتى في بلاغة المدرسة المتاخرة التي طغت تعاليمها في دراسة البلاغة وعلومها . وحسبنا ان نشير هنا الى ان علما من علوم البلاغة الثلاثة او هو علم المعاني ، يجد اهم اصول مباحثه مدروسا في باب من اهم ابواب كتاب الصاحبي ، وبدل ان يشيروا الى هذا الاصل الذي قام عليه هذا العلم ، نراهم يذهبون الى نسبته الى عبد القاهر الجرجاني ، وهي نسبة لا تعتمد على اساس ...) ص ١٢٦ .

ونرى الدكتور طبانة في موطن اخر من صفحة ١٣٩ ينصف ابن سنان

الخفاجي صاحب كتاب « سر الفصاحة » ، ويعجب من اغفال الباحثين اياه في معرض الحديث عن المؤلفين الذين حولوا الدراسة البيانية الواسعة الى منهج علمي منظم (مع انه لا يقل عن كثير منهم جهدا في نصرة المذهب العلمي في دراسة الادب ونقده ، والاتجاه نحو المنهج القاعدي الذي اخذ به البلاغيون المعروفون من امثال السكاكي والخطيب وغيرهما ، وان كان يفضل كل اولئك بانه لم يسلك في دراسة البيان ذلك المنهج القاعدي الجاف الذي ينفر من البلاغة ، وانما سار الخفاجي بالبلاغة والنقد الادبي سيرا مزدوجا ، فيه التحديد والتعريف ، والى جانبه النص والمثال او الى جانبهما الرأي السديد في الحكم بالاصابة او سوء الاستعمال) . ومن هنا كان عجبنا من اغفال الدكتور بدوي للمرصفي الكبير صاحب « الوسيلة الادبية » مع هذا التحري منه للعدل والانصاف .

ولا شك ان اختيار الدكتور بدوي طبانة للكتب وللرجال الذين يجد فيهم صلة بموضوع بحثه ، هو مما ينفرد به وحده ، ويستقل هو بتقديره لا يشركه فيه مشارك ... فهو قد اختار كتاب « الرماني » في اعجاز القرآن، ولم يختر كتاب « الخطابي » لان كتاب الرماني « من اهم كتب الدراسات القرآنية واكثرها اتصالا بالبلاغة والبيان ... ويعد من امهات كتب البلاغة » . وذلك تقدير سليم ، لان المفروض في المؤلف ان يذكر من الكتب ما يتصل بموضوع البحث اتصالا قريبا غير مجتلب. وعلى هذا الاساس لا ادري ان كتاب « اعجاز القرآن والبلاغة النبوية » لمصطفى صادق الرافعي حقيقا ان يذكر او ان يشار اليه في هذا المعرض . وللرافعي — رحمه الله — في كتابه هذا كلام عن « الكلمات وحروفها » ، وعن «افصح الكلام وابلغه ... وهو ذلك الذي تريده كلاما ، فتراه نفسا حية ، كانها تلقى عليك ما تقرؤه ممزوجا بنبرات مختلفة ، واصوات تدخل على نفسك — ان كنت بصيرا بالصناعة متقدما فيها — كل مدخل ، ولا تدع فيها احساسا الا اثارته ، ولا اعجابا الا استخرجته ، فلا يعدو الكلام ان يكون وجها من الخطاب بين نفسك ونفس كاتبه ، تقرؤه وكانك تسمعه ، ثم لا يلج الى فؤادك حتى تصير كانك انت المتكلم به ، وكانه معنى في نفسك ما يبرح مختلجا ، ولا ينفك مائلا من قديم ، مع انك لم تعرفه الا ساعتك ، ولم تجهد فيه ولا اعتملت له . وذلك بما جوده صاحبه ، وبما نفث فيه من روحه ، وما بالغ في تصفيته وتهذيبه ، وما اتسع في تاليفه وتركيبه ، حتى خرج مطبوعا من اثر مزاجه واثر نفسه جميعا ، فكانه مادة روحية منه » . وله كذلك كلام عن « الحروف واصواتها » . ولا ادري ان كانت هذه المسائل مما تنادى على نفسها بان تدخل في كتاب يبحث في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ؟

وعلى ذكر الكتب اذكر للدكتور بدوي طبانة انه اشار في صفحتي ١٩٥ ، ١٩٦ الى كتاب « البديع في نقد الشعر » لاسامة بن منقذ من رجال القرن السادس الهجري ، ثم عاد في صفحة ٢٤٠ فذكر لابن منقذ كتابه « التفريع في البديع » وقد جمع فيه خمسة وتسعين نوعا من البديع ، ويقول الدكتور ان كتاب « البديع في نقد الشعر » قد اشتمل على خمسة وتسعين بابا ، فهل التفريع والبديع كتابان مختلفان ام انهما اسم مختلف لكتاب واحد ؟

وهذه الكتب تحيرنا دائما ... فتارة تحيرنا باسمائها ، وتارة تحيرنا بنسبتها الى اصحابها ، وتارة تحيرنا بفصولها وفنونها .. فقد ذكر الدكتور طبانة في ص ٢٣٨ وهو يتحدث عن كتاب « تحرير التحبير » لابن ابي الاصبع المصري ان الرجل نسب الى نفسه استخراج ثلاثين فنا من فنون البديع لم يسلم له منها الا اربعة عشر فنا . ولكن ابن ابي الاصبع المصري نفسه يقول في مقدمة كتابه المذكور : « واستنبطت واحدا وثلاثين بابا ، لم اسبق في اغلب ظني الى شيء منها » ولا شك ان ابن ابي الاصبع اصح عددا ، واضبط رقما من الدكتور بدوي طبانة ، لانه هو صاحب كتاب تحرير التحبير ، وهو ادرى بما اخذ من غيره وما استنبط بنفسه .

ان كتاب « البيان العربي » هو احدى المحاولات الحديثة الجادة في دراسة البيان او البلاغة العربية منذ تدوين اللمع البيانية الاولى ، ومنذ الكلام في مجازات القرآن واعجازه حتى عصرنا الحاضر ، فهو تاريخ ودراسة لمفهوم البلاغة عند العرب ولتطبيقاتها لاهدافها واغراضها، سواء اكانت خدمة للدين عن طريق دراسة القرآن من حيث بيانه واعجازه ومجازه ، ام خدمة للادب على انه تعبير جميل عن فكرة جميلة ، ام خدمة للنقد على انه كشف عن مواطن الجمال والقبح في الكلام شعرا كان ام نثرا ، ام خدمة للافكار ، على انها غايتنا من الكلام الملفوظ او المكتوب ، وقد استعرض المؤلف الهيكل البياني في الفكر العربي ، كما استعرض لبناته ومداميكه سطرا سطرا ، في متابعة واعية ، وفطنة تامة ، وفهم للاتجاهات والمسالك التي كانت توجه وتسيطر عليه ، والمذاهب التي كانت تسوده او تتحكم فيه ، فهناك البيانيون الذين اتخذوا كتاب الله محورا لدراساتهم للكشف عن وجوه الحسن في اساليبه ، ولكشف النقاب عن معانيه ، لا عن طريق التفسير اللغوي ، بل عن طريق التفكير البياني . وهناك البيانيون الذين يساوون بين اللفظ والمعنى في المنزلة ، فلا انتصار لاحدهما على حساب الاخر ، وعلى رأس هؤلاء بشر بن المعتمر صاحب الصحيفة المشهورة . وهناك البيانيون انصار اللفظ والصياغة والتعبير ، وعلى رأسهم الجاحظ الذي صرح بان المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي ، والبدوي والحضري ، وانما الشان في اقامة الوزن ، وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وجودة السبك . وهناك البيانيون انصار المعاني والافكار ، لان المعنى هو اساس كل جمال في العمل الادبي ، وعلى رأس هذا الفريق عبد القاهر الجرجاني الذي كان في تطرفه للانتصار للمعنى — او المضمون — مقابلا للجاحظ في تطرفه للانتصار للفظ .

وهناك من البيانيين من اتخذ البلاغة تذوقا للجمال وادراكا للجميل من التعبير ، وتطبيقا عمليا للاحساس الفني بجمال التعبير ، كالشريف الرضي في « مجازات القرآن » ، وعبد القاهر الجرجاني في « اسرار البلاغة و « دلائل الاعجاز » ، ومنهم من اتخذ البلاغة وسيلة آلية للتعريفات البيانية الجافة والقواعد الجامدة ، مثل السكاكي الذي انتهت اليه قمة التقنين البلاغي في غير تذوق للبلاغة .

وهناك من البيانيين من اتجه بالبلاغة اتجاها ادبيا ذوقيا كابن ابي الاصبع العدواني المصري ، فكان يعتمد على العاطفة والاحساس الجمالي على حين كان يعتمد بياني مثل السكاكي على العقل والاستدلال المنطقي، ويتجه بالبلاغة اتجاها عقليا فلسفيا وكل خلاف بين البيانيين والبلاغيين قد يهون الا الخلاف بين قضيتي اللفظ والمعنى ... فان التطرف في الانتصار لاحدهما هو بلا ريب عدوان على الاخر ، ولقد جر الانتصار للمعنى كاتبا مفكرا مثل سلامة موسى الى الهبوط الى حد الاستهتار والتسمح والمناداة (بان ناخذ من العامية للكتابة اكثر ما نستطيع، وناخذ من الفصحى للكلام اكثر ما نستطيع حتى نصل الى توحيدهما) . ولقد لقيت دعوة سلامة موسى في حينها ما كانت قمينة به من المعارضة الحادة والمناقشة العنيفة والتسفيه ... ولم يكتف الدكتور بدوي طبانة بما كان ، بل اعاد المعركة جذعة من جديد وهو في معرض الحديث عن الثورة على الادب البياني .

وكما كانت الخلافات بين البيانيين والبلاغيين على مسائل كبرى كالخلاف بين قضية اللفظ والمعنى — او قضية الشكل والمضمون بلغة العصر الحديث — فهناك بعض خلافات صغيرة على بعض التسميات والمصطلحات . فقد ذكر ثعلب في كتابه « قواعد الشعر » فنا سماه « الافراط في الاغراق » ، وهو الذي يسميه ابن قتيبة «المبالغة» حينا، و « الافراط وتجاوز المقدار » بعض الحين . ويسميه ابو هلال العسكري « الغلو » ويعرفه بانه تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه الى غاية لا يكاد يبلغها . وذكر عبد الله بن المعتز في كتابه « البديع » فنا من محاسن



● الكويت بلد يولد من جديد ـ تأليف الياس مخلوف ـ مصمم الغلاف فؤاد بشعلاني ـ ١٨٦ صفحة ـ مطبعة سميا ببيروت .

● المتسولون الشرفاء ـ قصة ـ للكاتب الارمني هاكوب بارونيان ـ نقلها الى العربية بتصرف نزار خليلي ـ مراجعة خليل الهنداوي ـ الرسوم بريشة صاروخان ـ ١٤٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع مكتبة دار الشرق بحلب .

● العطر الضائع ـ مجموعة شعرية ـ عبد الخالق فريد ـ مصمم الغلاف يحي جواد ـ مطابع دار التمدن (؟) .

● الجمال والحب والفن ـ تأليف لبيب الرياشي ـ ١٩٦٤ ـ صفحة ـ منشورات دار الاندلس ببيروت ـ مطابع دار الاندلس ببيروت ـ

● زيغ وحقائق ـ بحث تاريخي عن العادات والتقاليد والشعوذة ـ تأليف محمد سعيد احمد قربان ذو الفقار ـ ٥٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع شركة الخط بالدمام .

● شتاء في الربيع ـ مجموعة قصص ـ تأليف جوزف فاخوري ـ مصمم الغلاف رافت بحيري ـ الخطوط بريشة مصطفى منيمنة ـ ١٦٠ صفحة ـ مطبعة معتوق اخوان ببيروت .

● البروستات : غدتك ـ تأليف ريد م. نسبت ـ ترجمة وتقديم الدكتور فريد سامي حداد ـ الرسوم بريشت جانيت مك لفلن ـ ٨٠صفحة ـ منشورات مستشفى الشرق ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

● الوردة الحمراء ـ مجموعة قصص ـ تأليف اميل يوسف عواد ـ مع مقدمة للمستشرق الفرنسي البروفسور ميشال بربور ـ ٨٨ صفحة ـ مطبعة الغفالي ببيروت .

● اللغة والمجتمع : رأي ومنهج ـ تأليف الدكتور محمود السعران الاستاذ المساعد بكلية الاداب بجامعة الاسكندرية ـ الطبعة الثانية ـ مزيدة ومنقحة ـ ٢٢٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار المعارف بمصر فرع الاسكندرية ـ مطابع دار الشرق الاوسط للطباعة والنشر بالاسكندرية .

● رياح الشاطيء الاخر ـ عشر قصص قصيرة ـ تأليف نورا نويهض حلواني ـ ١٥٢ صفحة ـ منشورات مؤسسة مجلة « دنيا المرأة » ـ مطابع بيبلوس الحديثة بفرن الشباك لبنان .

● محاكمة في نيسابور ـ مسرحية في ثلاثة فصول ـ تأليف عبد الوهاب البياتي ـ ١١٢ صفحة ـ مطابع دار الصحافة ببيروت

● الفن خبرة ـ تأليف جون ديوي ـ ترجمة الدكتور زكريا ابراهيم ـ مراجعة وتقديم الدكتور زكي نجيب محمود ـ مصمم الغلاف محمد اسماعيل صالح ـ ٦٠٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار النهضة العربية بالقاهرة ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

● العمل مع المجتمع ـ تحرير جمعية تعليم الكبار الامريكية ـ ترجمة هدى محمد بدران ـ مراجعة وتقديم الدكتور محمد عماد الدين اسماعيل ـ ٨٤ صفحة ـ منشورات دار القلم بالقاهرة ـ مطابع دار القلم بالقاهرة .

● نحل العسل ـ تاليف جون ليولن ـ ترجمة الدكتور عبد الخالق وفا ـ مراجعة الدكتور محمد قدري لطفي ـ ٤٨ صفحة ـ مصور ـ منشورات دار النهضة العربية (؟) مطابع ناتو بالقاهرة .

● بسم اله الشيوعية ..وكفى ـ تاليف مصطفى غالب صاحب مجلة الغدير ـ ١٥٢ صفحة ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

● من شيم العرب ـ تاليف فهد المارك ـ الطبعة الثانية ـ الجزء الاول ـ ٢٧٢ صفحة ـ حجم كبير ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

● قصة الطاقة الذرية ـ تاليف لورا فيرمي ـ ترجمة عمر كامل الوكيل ـ مراجعة وتقديم الدكتور زكي نجيب محمود ـ مصمم الغلاف صفوة عباس ـ ١٧٤ صفحة ـ منشورات مكتبة الانكلو المصرية بالقاهرة ـ مؤسسة طباعة الالوان المتحدة بالقاهرة .

● الاهرامات المصرية ـ تاليف الدكتور احمد فخري ـ تصدير حسن جلال العروسي ـ مصمم الغلاف امين لبيب ـ ٣٨٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية (؟) ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر (؟) .

● الشمس والقمر والنجوم ـ تاليف ماي وايرا فريمان ـ ترجمة الدكتور امام ابراهيم احمد ـ مراجعة وتقديم الدكتور انور محمود عبد الواحد ـ مصمم الغلاف حناصبري بطرس ـ ٨٦ صفحة ـ حجم كبير ـ مصور ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ـ مؤسسة طباعة الالوان المتحدة بالقاهرة .

● الاسرة في وادي الفرات ـ تاليف المحامي عبد القادر عياش ـ ٣٢ صفحة ـ حجم كبير ـ طبع بدير الزور في سورية ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

الكلام سماه « الافراط في الصفة » . واشار ابن فارس الى ان العرب تفرط في صفة الشيء مجاوزة للقدر ، اقتدارا على الكلام .

وهناك اختلاف على عدد فنون البديع ، فقد كان عددها قبل عصر ابي هلال العسكري تسعة وعشرين فنا بديعيا ، الى ان جاء ابو هلال فاستخرج سبعة فنون جديدة ، وقد جمع اسامة بن منقذ من فنون البديع خمسة وتسعين فنا ، وجمع شرف الدين التيفاشي منها سبعين فنا ، وجمع صفي الدين الحلي منها مائة واربعين نوعا في قصيدة مدح بها الرسول عليه السلام ، وجمع ابن حجة الحموي في بديعيته المشهورة المعروفة بخزانة الادب مائة واثنين واربعين فنا بديعيا ، كما احصى ابن ابي الاصبع في كتابه تحرر التحبير مائة وستة وعشرين فنا من فنون البديع (لا مائة وتسعة وعشرين كما ذكر الدكتور بدوي خطأ في صفحة ٢٣٨) .

ولا شك ان الانشغال بمثل هذه التفريعات والانواع البديعية مسئول الى حد كبير عن ذلك التكلف الغريب الذي دخل على صناعة البيان العربي فاحالها من فطرة الطبع ، الى سخافة الصنعة ، وسماجة التكلف ، وهو مايحاول العرب اليوم التخلص منه جملة ، ليعودوا باللغة العربية الى اشراقها وسماحتها ، ونصوعها وفطرتها .

القاهرة — محمد عبد الغني حسن

● أعلن مؤخرا الدكتور غوردون زبرود مدير الابحاث الداخلية في معهد السرطان الوطني الامريكي، عن احراز تقدم مشجع في كفاحه ضد السرطان ، وذلك في اجتماع للمؤتمر الطبي الدولي في نيويورك . وقد حضر الاجتماع اطباء ٤٠ دولة وذكر الدكتور زبرود ان التحسينات التي ستحصل خلال العقد القادم ستنجم الى حد كبير عن التطورات الحاصلة في ضبط السرطان كيميائيا . وقال انه على الرغم من ان كثيرا من الارواح يجري انقاذها عن طريق التشخيص المبكر وازالة السرطان بالجراحة فان هذه

في كلمات ...

المعالجة لها حدود واضحة ويجب ان ياتي التحسين المقبل عن طريق التقدم في المعالجة بالادوية . وبعد ان عدد الدكتور زبرود انواع السرطان التي عولجت كليا بواسطة الادوية اشار الى ان الادوية لم تؤد الى ازالة جميع اعراض السرطان بجميع المرضى . وقال ان اعظم نجاح احرز في معالجة السرطان بالادوية كان ضد الكوريو كارسينوما ، وهو نوع نادر من السرطان تظهر اعراضه على النساء الحوامل . واضاف ان هناك ثلاثة عقاقير طبية مختلفة احدثت شفاء لمدة خمس سنوات من هذا السرطان في نسبة كبيرة من المرضى المعالجين . وحث الدكتور زبرود على اجراء المزيد من الابحاث على الادوية التي يقصد بها معالجة انواع معينة من السرطان وعلى المعالجات الوقائية التي تستخدم فيها الادوية لمنع نمو السرطان .

● تمكن فريق مشهور اخصائيي جراحة القلب في مستشفى همرسميث في لندن بالتعاون مع احدى الشركات الالكترونية في بريطانيا من اعداد غرفة جديدة مبتكرة لاجراء العمليات الجراحية ، وهي مزودة بمعدات الكترونية تكفل خلو الجو من الجراثيم . ولقد صدر ست من هذه الغرف الى بروكسل في بلجيكا ، كما ان واحدة منها عرضت في ايطاليا اخيرا وكانت موضع اهتمام الاوساط الطبية التي اقبلت على طلب المزيد من المعلومات عنها .

● توصل علماء اوكرانيا الى طريقة لاستخراج عقار طبي له قيمته من نبات « الشبت » لاستخدامه في علاج امراض شرايين القلب المزمنة ومنع الاصابة بها ، وقد اطلقوا على العقار الجديد اسم «انيتين» .

● لقد حدث اخيرا تقدم عجيب في معالجة امراض الكلى المزمنة . والمعروف ان الكليتين عضوان اساسيان في الحياة اذ تعملان على تنقية الدم من السموم المتراكمة فيه بعد عمليات احراق الغذاء في الانسجة والقيام بمجهود جسدي . وقد تصاب الكليتان بامراض شتى كالرمل والحصى او الالتهابات المزمنة وما الى ذلك . ولهذا يشعر الانسان بآلام شديدة ويصاب بتسمم في الدم من جراء عدم قيام الكلى بوظيفتها الطبيعية او بسبب تقصيرها في هذه الوظائف . وبعض هذه الامراض قتالة وتحدث اوجاعا لا تطاق وينجم عنها ارتفاع في ضغط الدم . وهذا ما تتعرض له نسبة كبيرة من الناس في العالم . ولقد توصل علماء الطب في مستشفى هامستيد الملكي في لندن الى ابتكار جهاز عجيب يساعد الكليتين في وظيفتهما لتخفيف آلام المرضى والدفاع عن حياتهم بصورة سهلة . وما على هؤلاء المرضى الا ان يذهبوا الى المستشفى المذكور لتطهير دمهم وتنقيته مرة او مرتين في الاسبوع بواسطة الجهاز المذكور فيخف الضغط ويقف التسمم بفضل تجريد الدم من الفضلات السامة المتراكمة فيه من جراء عجز الكلى او تقصيرها في تادية وظيفتها .

● اعلن الدكتور دنيس بيركيت مؤخرا في كندا ان البعوض قد يكون ناقلا لفيروس يسبب السرطان في الاطفال . وان دراسات الفرق الطبية الدولية في شرق ووسط وجنوب افريقيا قد دلت على دور البعوض في نقل الورم الليمفاوي الخبيث الذي يعتبر اكثر انواع سرطان الاطفال انتشارا في افريقيا .

● استطاع الدكتور ا. بيرس ، وهو من رجال جامعة لندن ابتكار نظام جديد لتجفيف الانسجة الحية والاحتفاظ بها مجلدة لمدة طويلة دون عطب في مادة النيتروجين وذلك بفضل جهاز من تصميمه يحتفظ بالانسجة دون الالتزام برقابة الحرارة لابقائها ضمن حدود معينة يجب الا تتعداها كما هي الحال في الطرق المتبعة حاليا اذ من الضروري ان تظل الحرارة تحت الصفر دون ان تتجاوزه كثيرا والا تعرضت الانسجة للفساد وغدت تالفة لا تصلح للاستعمال .

● اعلن في بون نبأ اكتشاف عقار جديد اسمه « بازوفير » يقلل من خطر الاصابة بسرطان المعدة ، وذلك بعد ابحاث تبين منها ان سبب الاصابة بهذا المرض يعود الى ان خلايا المعدة التي تفرز المادة القلوية تكون معرضة للاصابة بالسرطان اذا توقفت هذه الخلايا عن الافراز او اذا قل افرازها أو زاد عن المعدل الطبيعي . كذلك فقد ثبت ان الحموضة المستديمة في المعدة المصحوبة بصداع دائم حاد والام في المعدة هي من اعراض الاصابة بسرطان المعدة .

● قد تؤدي التجارب العلمية الجارية الان في بريطانيا الى ايجاد طريقة يتمكن بها الابكم من التحدث والاعمى والاصم من القراءة . وتسير التجارب الحالية في اتجاه ايجاد اتصالات الكترونية من خلال الاصابع او من خلال جلد المعدة او من خلال احد الشرايين يوصل المعلومات المطلوب نقلها ، الى الدماغ . وتقوم الان جامعة كمبردج بابحاث تستهدف تحقيق هذا الفرض. وتشمل اغراض هذه الابحاث ايضا دراسة الاثر الذي تتركه الضجة في قدرة عمال المصانع على انجاز اعمالهم . ويستدل من نتائج هذه التجارب

البيولوجي . وهكذا يمكن الحصول على هذه المواد بكميات ضرورية وذلك بالعزل والتصفية الكيميائية .

ان الابحاث التي تجري على عينات من مختلف الفيروسات قد اتاحت استخلاص بعض الاستنتاجات الهامة . مثلا امكن بواسطة عمليات تكثيف محددة تماما للاكتينوميسين الوقف التام لعملية تركيب الاحماض الريبو نووية للفيروس . ويتبين كذلك انه توجد، في الاليات الجزيئية لعملية تركيب الحمض النووي للفيروسات عدة خصائص جوهرية لم تدرس بعد . ان دراسة هذه الخصائص يمكن ان تستخدم كنقطة انطلاق لصياغة مستحضرات جديدة ضد الفيروسات.

لقد تم الحصول في الاونة الاخيرة على نتائج هامة لدى دراسة بعض المضادات الجديدة للحيوية التي تخنق انتقائيا الاحماض النووية وذات القدرة ضد تطور الاورام الخبيثة. ان الميتوميسين مثلا يشكل قدرة كبيرة ضد نمو بعض الاورام الخبيثة ، في التجارب التي اجريت على الحيوانات . ولكن الميتوميسين يحتوي على نسبة تسمم كبيرة بالنسبة للانسان وهو لم يعط نتائج ايجابية عند اختباره في العيادة . وفي معهد البحث عن مضادات جديدة للحيوية ، في اكاديمية العلوم الطبية السوفياتية ، تم الحصول على مضاد جديد مزود بقدرة خانقة انتقائيا للاحماض النووية .

وما زال العلم يخطو خطواته الاولى في سبيل استنباط مضادات جديدة للحيوية ضد السرطان وضد الفيروسات . ان ايجاد هذه المضادات للحيوية سيتطلب جهدا كبيرا يستمر عدة سنوات ، وعملا مشتركا وموجها نحو هدف واحد من جانب علماء مختلف الفروع ، وتشديدا كبيرا للاعمال النظرية في ميدان علم الجراثيم ، والفيرولوجيا والبيوكيمياء . ولهذا العمل المشترك الذي تقوم به مختلف العلوم اهمية حاسمة بالنسبة لايجاد مضادات الحيوية ، في الغد .

أن للضجة اثرا مفيداً في الاعمال التي تتصف بالرتابة والروتينية . ولكنها ذات أثر سيء في الاعمال التي تتطلب الدقة والتركيز .

● منحت جائزة نوبل للطب لعام ١٩٦٣ الى ثلاثة بريطانيين : الن لويد هودكن البروفيسور في جامعة كامبردج واندرو فيلدينغ هكسلي من جامعة لندن ، والسير جون كاريو اكتيز من كانبيرا . وتبلغ قيمة الجائزة ٢٦٥ الف كراون سويدي (٥١،١٥٨ دولارا) . وقد اعلنت الجائزة هيئة من اساتذة معهد كارولين الملكي للطب في السويد وقالت الهيئة ان جائزة نوبل منحت الى هؤلاء الثلاثة «لاكتشافاتهم المتعلقة باعمال الجهاز العصبي والامراض العصبية » .

● قالت صحيفة « كومسومولسكايا برافدا » انه يبدو ان احد العلماء السوفييتحصل على كائنات حية من مواد غير حية وذلك لاول مرة في التاريخ . وقالت الصحيفة ان الدكتور فاسيلي كالينكو مدير احد المعامل البيولوجية التابعة لاكاديمية العلوم السوفييتية كان هو نفسه « حذرا » اذ وصف ما حصل عليه بانه تكوينات « تشبه الحياة » .

● جهاز الكتروني لتحديد النسل والتحكم في انجاب الذكور او الاناث ابتكره الدكتور « الفين سينجر » من المختبر الالكتروني الامريكي ، وبه يستطيع تحديد موعد استعداد البويضة للتلقيح .

ويتالف الجهاز الجديد من اداة صغيرة متصلة بمقياس الكتروني يقيس الحرارة الداخلية عندما تستخدم السيدة الاداة الصغيرة . وتسجل الحرارة ، فيظهر اي فرق ينشأ بسبب استعداد السيدة للاخصاب .

ويقول الدكتور «سينجر» ان بعض الدراسات الجديدة تدل على ان فترة الاخصاب هي التي تحدد نوع الجنين . وبمعونة الجهاز يمكناختيار هذهالفترة وتحديد جنس الجنين.

● القىليندون جونسوننائبالرئيس الامريكي خطابا في اجتماع للجمعية الصحية العالمية قال فيه انالابحاث الخاصة بالفضاء الخارجي قد ساعدت المرضى من نزلاء المستشفيات المصابين بارتفاع ضغطالدم علىمغادرة فراشهم والتجوال هنا وهناك بارتدائهم ملابسالفضاء . وقال ان الكثير من الاساليب الجديدة المتبعة في علاج الامراض يرجع الفضل في ابتكارها الى البحوث الخاصة بالفضاء . « وستتعلم بفضل مجازفتنا بارتياد الفضاء الكثير عن عالمنا الارضي وسنكشف عن الاسرار المجهولة لجسم الانسان كما سنحل الغاز الحياة التي ظلت غامضة منذ القدم حتى يعيش سكان هذا الكوكب متمتعين بصحة افضل » .

● اجرت انطونينا يونينا الاختصاصية في امراض الاذن والبلعوم اكثر من مئتي عملية في السنوات الاخيرة في موسكو . جميع مرضاها كانوا مصابين بجرح في نسج البلعوم الامر الذي كان يجعلهم عاجزين عن النطق . واستخدمت يونينا في اصلاح اقسام البلعوم المصابة اضلاع اشخاص ماتوا فجاة . خلال العملية تصنع يونينا غضروفا اصطناعيا صغيرا مثقوبا عدة ثقوب مكان الجرح . وفي مدى اسبوعين او ثلاثة تلتحم النسج ويصير الغضروف قسما من الحنجرة التي تستعيد الحياة . ويبدأ المريض بالتنفس والكلام بشكل طبيعي . ان احد سكان غوركي (على الفولغا) المدعو ايفان مكسيموف لم يتكلم خلال اربعين عاما . واعادت اليه يونينا مؤخرا هبة النطق. وتلقى انطونينا يونينا بريدا وافرا من عدة بلدان .

● جاء في دراسة طبية نشرت في ايرلنده ان الاكثار من تدخين السجاير عامل بالغ الاهمية فيامراض القلب بين الرجالالايرلنديين قبل بلوغهم الستين من العمر . ووجدت الدراسة التي اجراها مستشفى « سانت فنسنت» في دبلن على ٢٠٠ منالمرضى الذكور ان نسبة مرضى القلب بين المدخنين منهم اعلى بكثير من نسبتها بين غير المدخنين . وقالت مجلة الهيئة الطبية الايرلندية : « اننا لا نملك حتى الان دليلا على الافراط في التدخين يسبب مرض القلب ولكن ثمة نظرية بدلية معقولة لتشرح هذا الارتباط بينهما . »

وقالت المجلة اننسبة الوفيات السابقة لاوانها بسبب امراض القلب ستنخفض كثيرا بالكف عن تدخين السجاير .

● ذكر جراح اميركي انه تمكن منابقاء رجل على قيد الحياة مدة اربعة ايام بواسطة مضخة اصطناعية خيطت بقلبه . وفي العملية التي اجريت لذلك الرجل استبدل ضخ البطين الايسر بانبوبين من البلاستيك احدهما داخل الاخر وقد وضعت صمامات مستديرة عند طرفيهما . ووصلت الانابيب بمكبس صغير خارج الجسم جعل الجهاز ينبض في ايقاع ينسجم مع بقية القلب ويضخ الدم الى داخل الرئتين . وكان من شان القلب الاصطناعي ان يؤدي مهام جميع التجاويف الاربع ويستعمل مورده الداخلي من الكهرباء . والجراح المذكور هو الدكتور مايكل ديباكي استاذ الجراحة بجامعة بايلور بمدينة هيوستن تكساس ، وهو يقول ان هذا الجهاز غرس في جسم رجل مريض فيالثانية والاربعين كان يعاني من قلب معطوب . ويعتقد ان كون هذا الجهاز قد ابقى الرجل المريض على قيد الحياة مدة اربعة ايام له دليل على امكانية ايجاد قلوبصناعية . وكانهذا واحدا من عدة نجاحات تم احرازها نحو تطوير قلوب صناعية وقد اجرى الدكتور ديباكي العملية بعد تجارب واسعة قام بها بابتكارات مماثلة غرست في اجسام الكلاب وقد عاشت الكلاب اكثر من ٢٤ ساعة بعد العملية .

وتحدث فريق من العلماء من عيادة كليفلاند عن تجارب اجروها بواسطة قلب صناعي جديد على ٢٢ كلبا . وقد حل الجهاز كليا محل القلب وابقى الدورة الدموية مستمرة مدة ٢٧ ساعة في اجسام بعض الكلاب وهي اطول مدة سجلت حتى الان , وتسببت الوفاة عن حدوث بعض التخثر في الدم وليس عن تعطل الجهاز . وقد امكن التحكم بضخ الجهاز عن طريق جهاز الكتروني ضابط .

وذكر فريق من الاطباء من جامعة ستانفورد في بالو التو بولاية كاليفورنيا ان ثلاثة كلاب عاشوا حوالي سنتين بعد ان ازيلت قلوبها واستبدلت على الفور بقلوب اخرى سليمة . ومثل هذه العمليات يمكن ان تؤدي الى ايجاد « بنوك للقلوب » شبيهة ببنوك العيون المستعملة على نطاق واسع على ان المشكلة الكبيرة في عملية نقل الاعضاء الحيوية هي ميل الجسم بصورة طبيعية الى نبذ العضو الخارجي المزروع . وتجري الان تجارب واسعة في المختبرات لتطوير عقار يضعف مقاومة الجسم لهذه الاعضاء .

● تم صنع دماغ آلي من طراز جديد وتكنية هندسية مبتكرة بلغت نفقات اعداده مليونا ونصف المليون من الجنيهات . وهو لمصلحة مركز الابحاث الذرية البريطانية القائم في الدرماستون . ومن خصائص هذا الدماغ انه يحل نصف مليون عملية حسابية بسرعة البرق الخاطف وفي مدة لا تتجاوز الثواني المعدودات . وسيستخدم لشؤون الدفاع ، ويمكن ايضا اعتماده في مجالات الابحاث العلمية وخاصة مشاكل الذرة المعقدة .

● ابتكر في موسكو جهاز يقوم بمهام حارس الصمت . ما ان تتجاوز الضجة المستوى المرتقب حتى تضيء اشارة ضوئية او يرن جرس . ويتضمن الجهاز مكبر صوت ومخططا الكترونيا ووصلة لتسيير الاشارات . والجهاز يمكن استخدامه في استوديوهات التلفزيون والاذاعة والسينما وفي المراكز التليفونية ومؤسسات اخرى .

● ستجري في احد مطارات المانيا الغربية تجارب على اسرع طائرة هليكوبتر في العالم تصل سرعتها الى ٤٨٠ كيلو مترا في الساعة ستبلغ تكاليفها ١٥ مليون دولار . ومهندسها هو د. اوتو شميدت .